

أول رحالة اسباني يزور العالم العربي

في مطلع القرن التاسع عشر

د. الطاهر أحمد مكبح

الرحلة وما أحاط بها من تدبير وملابس، ما كانت تخفى أوروبا لعالمنا العربي، وما سوف يتحقق بعد ذلك تدريجاً، ذلك أن اسبانيا كانت تقف على هامش اللعبة، تتمنى أن يكون لها دور، وأن تأخذ بنصيبها من الغنائم، ولكن الأوروبيين الآخرين لا يودون لها أن تخرج من واقعها الفقير الضعيف المتخلف، ولم تكن تملك الإمكانيات المادية والعلمية التي تتيح لها أن تلعب هذا الدور وحدها.

ومن جانب آخر فإن الاهتمام بأميركا الجنوبية وأهلها واكتشاف مجاهلها قد شغلها رشحاً من الزمن، واستنفد كل قواها، فلما بلغت القرن التاسع عشر كان كل شيء فيها قد ترهل: الدولة، والإدارة، والاقتصاد، والرغبة في اقتحام المجهول. ومن هنا تكتسي رحلة دومنغو باديا أهمية بالغة، وبالنسبة لنا فإن الرجل يقدم شهادة تتسم بالموضوعية عما رأى في بلادنا، في فترة تقل فيها المصادر العربية، على حين أن شواهد الرحالات الآخرين تنضح كذباً ومبالغات، وخيالات وأوهاماً؛ وهي إلى الأدب المبدع أقرب منها إلى الواقع والتاريخ.

كانت رحلة عجيبة، وكان رحالة أعجب.. . أما الرحلة فلإلى العالم العربي في مطلع القرن التاسع عشر، أو على التحديد بين عامي 1803 و 1807، وأما الرحالة فإسباني تقيص شخصية عربية، وارتدى زياً شرقياً، واصطنع لنفسه نسباً عباسياً، ومضى يطوف العالم العربي تحت هذا الستار. تلك هي رحلة «الأمير علي بك العباسي»، ولم يكن علي بك هذا غير دومنغو باديا Domingo Badia، أحد الأسبان القلائل، الذين ولّوا وجوههم شطر الشرق ليروا ما هنالك، وأولهم، وإن لم يكن على التأكيد الأوروبي الوحيد، فقد عرفت بلادنا رحلات كثيرين، جاءوا إليها من كل أقطار أوروبا، للتبشير أو التدمير، وللتجسس أو التلصص، وفي القليل النادر لمعرفة كنه شعب ظل طوال العصور الوسطى المنارة الهادية، والشعلة المضيئة، والقوة المؤثرة، والجامعة التي يتجه إليها كل راغب في المعرفة، طموح إلى الحكمة.

وربما تكون رحلة باديا هذه من أهم الرحلات الأوروبية، لأنها تكشف في وضوح، من خلال نص

رئيس الوزراء الإسباني، ومع أن الحكومة الإسبانية سرت له الوسائل بعد إلحاح منه، إلا أن التنفيذ تحول إلى سلسلة من الصعوبات والعوائق، وفشلت محاولاته، وبعدها ترك قرطبة إلى ثغر قادس، ويبدو أنه لم يتسلم عمله هناك لأنه لا يظهر في قائمة الوظائف التي تولاهها، وحرّرها بيده بعد انتهاء رحلته. وقد ذهب إلى مدريد للدراسة فيما يقول، ولأنه يود أن يعرض خطته على الإدارة في انتظار موافقتها.

وفي 8 من نيسان (ابريل) 1801 قدم إلى جودوي مذكرة، دون وسيط ولا توصية - فيها يقول - تتضمن خطة رحلة إلى أفريقيا، لغايات سياسية وعلمية، وأرفقها بخريطة جغرافية، وأشار فيها إلى أن العقبة الرئيسية أمامه، وأمام أية رحالة أجنبي، هي تعصب الشعوب الإسلامية، فهم ينظرون إلى أصحاب العقائد الأخرى على أنهم أعداء ألداء، ومن يموت في قتالهم فهو شهيد. وأمّا الأوروبي الذي يخفي دينه ووطنه، ويتقدم إليهم في صورة مسلم فسوف يستطيع زيارة بلادهم كلها، ولا يكلفه هذا إلا شيئاً من اللغة العربية، وأن يحفظ قدراً هيناً من القرآن الكريم، وأن يرتدي ملابس شرقية، ويحافظ على المظاهر والتقاليد الإسلامية، وأن يأخذ اسماً إسلامياً.

ولم يكن غافلاً عن التعصب الكاثوليكي القاتم الذي يمسك بمصائر الأمور في إسبانيا، فلا يرتضي له أن يتظاهر بالإسلام مؤقتاً حتى لغايات سياسية، مما يؤدي إلى توقف الحكومة فلا توافق على خطته، ولهذا أسرف في الحديث عن نبل مشروعه وغاياته، والفوائد العظيمة التي تجنيها المسيحية من وراء اكتشافاته.

وكان تنفيذ الخطة يقتضي أن يقيم في مدينة فاس شهراً أو شهرين، يتعلم خلالها لغة المندنج التي يتكلمها سكان أفريقيا السوداء في أعلى السنغال والنيجر، فقد تصور أن بعض التجار في فاس ممن

الأخبار المتصلة بحياة باديا في طفولته وصباه قليلة جداً، وكل ما نعرفه عنه أنه ولد في برشلونة في أول نيسان (أبريل) عام 1767 لأب يعمل أميناً لحاكم هذه المدينة ولأم ذات أصل بلجيكي، واستقر أهلها في برشلونة منذ القرن السابع عشر، وليس هناك ما يفيد أنه تلقى أية دراسة عالية، أو التحق بأية جامعة، ولم يكن ذلك ضرورياً في تلك الأيام لكي يتولى المرء وظيفة إدارية. غير أن أحداً لا ينكر عليه أنه تميز بالذكاء وحب المعرفة، والولع بالقراءة، والميل إلى دراسة الرياضيات والجغرافيا والعلوم الطبيعية، وحصل منها قدراً طيباً أهله وهو في الرابعة عشرة من عمره أن يعين موظفاً بالإدارة المالية في غرناطة، وفي التاسعة عشرة خلف والده في وظيفته التي كان يشغلها في البيرة في مقاطعة المرية، عندما نقل منها إلى مدريد.

وبعد إقامته في البيرة خمس سنوات تزوج فتاة منها، ولدت له بنتاً بعد ثلاث سنوات من الزواج، وفي العام نفسه نقل مديراً لمصنع الطباقي الملكي في قرطبة، وفيها أمضى أربع سنوات يدرس ويتأمل، وغيرت مجرى حياته، إذ فتحت أمام ناظره ألواناً من التأمل، وأثارت في حنايا عقله جديداً من الأمل والتفكير.

رأى في قرطبة عاصمة الخلافة الأندلسية أطياف المجد الغابر، وطابع الحضارة الباقية عبر الزمن، ورأى في أهلها شموخ العزيز، وأنفة الأصيل، وحسرة الكليم، ورأى خمسة قرون لم تغير من الناس كثيراً. ذهب دولة وجاءت أخرى، اختفى الإسلام وسادت المسيحية، ولكن قرطبة لم تنس ماضيها لحظة، حتى بعد أن احتلت أجراس الكنيسة مآذن المسجد الجامع، ورغم أن أهلها لم يعودوا عرباً ولا مسلمين.

وربما إلى هذه الأعوام يعود بحثه الأول عن «النفط والآلة والمناطيد الهوائية» وأهداه إلى جودوي Godoy

يتاجرون مع داخل أفريقيا يتكلمونها، واعتقد أن هذه اللغة مفتاح التفاهم مع سكان أفريقيا السوداء، فإذا أكمل المهمة بدأ رحلته على ثلاث مراحل كبرى: المرحلة الكبرى تبدأ من مدينة مراكش إلى أغادير في جنوب غربي المغرب على ساحل الأطلنطي، وتطلق المصورات الجغرافية الأوروبية على هذه المدينة الأخيرة اسم سانتا كروث، ثم يدخل الصحراء من وادي درعة على حدود المغرب الجنوبية عبر الطريق التي رسمها سيدي محمد موسى عبدالله وهو تاجر من جبل طارق، للرحالة الإنجليزي مونج بارك، ويصل إلى بنون في شهرين، وهو مكان عبثاً نفتش عنه في الخرائط القديمة أو الحديثة، ويبدو أنه مجرد محط للقوافل، ومن هذه إلى مدينة ولاتة، وهي اليوم في موريتانيا، ويذكر ابن بطوطة أنها على مسيرة شهرين من سبلماسة في المغرب، ثم تمبكتو في مالي والهوسة، وبعدها إلى سان جورج في ساحل الذهب، وهي المينا في غانا الحالية.

وبعد أن يستريح قليلاً في هذا المكان الأخير تبدأ الرحلة الثانية، وفيها يعبر أفريقيا الاستوائية من الغرب إلى الشرق، إلى أن يصل إلى بيافرا، ثم إلى مدينة مليندي في زنجبار على ساحل المحيط الهندي، وهي مدينة على بعد خمسين ومئة كيلومتر إلى الشمال من ممباسا، على شاطئ كينيا، وكانت في تلك الأيام مركزاً تجارياً هاماً، ترده البواخر العربية بكثرة، وفيها التقى المستكشف البرتغالي فاسكو دي جاما بالملاح العربي أحمد بن ماجد، الذي قاده عبر المحيط في رحلته إلى الهند.

وكانت المرحلة الثالثة أن يبدأ من الحبشة إلى دار فور وكردفان والنوبة وكانيم وطرابلس، وكانت كانيم مملكة مستقلة ظلت حتى عام 1846 على ضفاف بحيرة تشاد، ويلاحظ على خطة باديا هنا الاضطراب، لأن النوبة شمال شرق دار فور وكردفان على حين أن كانيم أقصى جنوب الطرق الرئيسية التي تخترق

الصحراء وتنتهي في طرابلس الغرب.

وقد قدّر باديا أنه سوف يقطع قرابة عشرة آلاف كيلومتر، تحتاج إلى ثلاثة أعوام وهو ما يسمح له أن يعد تقريراً مفصلاً عن السياسة والاقتصاد والعادات والمنتجات، ومواد الترف الأكثر طلباً وإقبالاً عليها، في المناطق التي سوف يزورها. وأن يرسم لها خرائط، وأن يجمع منها نباتات وأحجاراً، وأن يعثر على منابع النيل، وعبثاً كان يبحث عنها قبله الإنجليزي برون وجيمس بروس، ووصلاً قبله بأعوام، ولا بد أنه اطلع على رحلة هذا الأخير إلى منابع النيل، لأنها ترجمت إلى الفرنسية، وصدرت في باريس، وكان يطمح في الحصول على معلومات وافية عن تمبكتو عاصمة الصحراء، وكان يظن يومها أنها غارقة في الثراء.

وتظهر الخطة ثقة باديا بنفسه، ثقافته وقوة تحمله، وصلابة جسمه، ولم يكن لها ما يبررها أو يبرهن عليها.

مثلاً، كان يعتقد أنه قادر على تعلم اللغة العربية في زمن بسيط، وأن يتعلم لغة المندنج في شهرين يقضيها في مدينة فاس، ولكنه لم يجد فيها تاجراً واحداً يعرف شيئاً عن هذه اللغة، لأن الذين يتحدثونها يقيمون بعيداً عن محيطهم التجاري، والتجار الأفارقة الذين يتعاملون معهم، يعرفون العربية غالباً، أو يعرفون منها على الأقل ما يحتاجون إليه في حوارهم التجاري.

يبدو أن باديا اعتمد كثيراً على رحلة مونج بارك وتعليقات الميجور رنيل عليها، وصدرت طبعتها الثانية في لندن عام 1799، وأنه قرأها بعناية، وأن تظايره بالإسلام واختياره الزبي الشرقي جاءت نتيجة مباشرة لها، لأنه وقع أسيراً، وفيها بعد، عندما أطلق سراحه أكد على أنه كان يمكن أن يفلت من الأسر، وأن يتجنبه، لو أنه كان مسلماً، وكان سيدي محمد موسى قد حذره من زيارة تمبكتو، لأنهم هناك يعتبرون

غير المسلمين أبناء الشياطين، وأعداء الرسول عليه الصلاة والسلام.

لكن من الحق أيضاً أن معلومات باديا كانت قاصرة، لأنه مثل هذا الزي لا يخدمه في شيء في المناطق التي تقع جنوب تمبكتو، والتي كان يتهاى لاخترافها، لأن المسلمين كانوا في هذه المناطق قلة، أو لا يكاد يوجد فيها مسلمون.

على أية حال أصبح مثل هذا التخفي شيئاً شائعاً بين كبار رحّالات القرن التاسع عشر، فالسير (Sir) بورتو حجّ إلى مكة في ثياب درويش فارسي، والإسباني جفيرا جال المغرب كله مسلماً ارتد عن المسيحية، واتخذ اسم القائد اسماعيل، والفرنسي رينيه كيليه رحل إلى تمبكتو في صورة مسلم شرقي انفصل عن والديه منذ الطفولة، والدكتور لينيز أشقر الشعر ويجهل العربية تماماً، ذهب من طنجة إلى تمبكتو متخفياً وراء مظهر طبيب عثماني، على حين أن فوكول تعمق في جبال الأطلس في ثياب يهودي، وكل هؤلاء الرحّالات، طبقاً لروايتهم في رحلاتهم، سعدوا بالزي الشرقي الذي اختاروه، وعلى حين لقي كيليه حفاوة بالغة من المغاربة، وصدقوا فيما قال، كما صنعوا مع باديا من بعد، لم يستطع أن يتغلب على شكوك السود فيه.

تلقت الدوائر الحاكمة في إسبانيا مخطط باديا بحماسة بالغة وبخاصة الملك وجودوي رئيس الوزراء، وأحيل التقرير إلى مجمع التاريخ الملكي، فألّف لجنة ثلاثية لدراسته، وكان ردّها: إن باديا مجرد هاوٍ، ومعلوماته ليست عميقة، ولا واسعة بالقدر الذي تتطلبه رحلة كهذه، وشكت في نجاح المخاطرة، وأشارت إلى أنه يجهل العربية ولم يختر رفيقاً يصحبه، يؤكّد المعلومات التي سوف يضمنها تقريره، ويحافظ على الملاحظات والأوراق إذا حدث لباديا مصيبة، ولكنها أمام روح المغامرة والحماسة اللتين أبداهما توصي بتوجيه ذلك إلى أميركا الجنوبية، في

نطاق أملاك ملك إسبانيا.

ولم يأس باديا، وعاد إلى جودوي من جديد، وليفتح شهيته أخذ يعد ما سوف تجنيه إسبانيا من الرحلة، ومن إمكانية ضم أراض جديدة إلى أملاكها وترك لنا جودوي نفسه، في مذكراته، انطباعاته عن هذا العرض، يقول:

«إن رحلة إلى الخارج، إلى أفريقيا وآسيا لا بد أن تكون علمية فحسب، وغايتها الأساسية تنحصر في معرفة الوسائل التي تمكّتنا من مد تجارتنا من المغرب إلى مصر، ورسم الخطط كي تبلغ مناطق آسيا مع استقلال كامل عن القوى الأوروبية... وثمة فكرة استقرت في خاطري، وتعيش دائماً في فكري، وبت أحلم بها، وهي البحث عن طريقة نصل بها إلى تجارة أفريقيا الداخلية عن طريق المغرب، فهناك مواد تجارية كثيرة، ليست بذات أهمية، أو حتى لا تساوي شيئاً في أميركا، قليلة القيمة، وليست لها أسواق مضمونة في أوروبا، يمكن أن نجد لها مخرجاً في البلاد الأفريقية، وبأثمان عالية... إن إسبانيا فقط يمكنها، لموقعها الجغرافي، أن تستفيد بالتجارة مع أفريقيا دون أن تخشى منافسة».

واقترح باديا أن يصحبه في رحلته هذه رجل آخر وجده في معهد سان إيسيدورو الملكي، يدعى سيمون دي روخاس، من قرية تطواس في مقاطعة بلنسية، حصل على الدكتوراة في اللاهوت من جامعتها، ويعرف اللغة العربية، وترك رسالة صغيرة طبعت في مدريد عام 1801 بعنوان: «عرض موجز للنحو والشعر العربي» تحمل بعضاً من الأفكار الموجزة عن هذين الموضوعين، وعلى الرغم من قلة أهميتها علمياً تعكس الحالة التي كانت عليها دراسة اللغة العربية في إسبانيا في تلك الأيام، والوجهة التي كانوا يفكرون في أن تكون عليها، وكان روخاس يشارك باديا في معرفته بالعلوم الطبيعية، لأنه أمضى أيامه يعمل في

الحديقة النباتية في مدريد، ثم اختير نائباً في البرلمان الإسباني.

وافقت الحكومة الإسبانية على الخطة وتمويلها، ولم يكن باديا سعيداً بها، لأن المبلغ الذي قُدِّر له مجرد مساعدة على الدراسة لا يزيد عن ثلاثة آلاف ريال، تضاف إلى مرتبه، ونصف المبلغ يدفع لروخاس بوصفه مرافقاً، كما خصص مبلغ آخر لشراء الآلات العلمية، ويجب أن تصنع في إنجلترا بحضور باديا نفسه. وقد تأخرت الرحلة بضعة شهور، وفيها ودَّع الملك والمملكة، وتمنيا له التوفيق.

وعندما عاد إلى مدريد، وذهب إلى وزارة المالية، عرف أنه لا توجد أموال لكي يدفعوا له المبالغ المقررة بأمر ملكي، ومع ذلك ففي 7 أيار (مايو) 1802 ودَّعَا جودوي وخرجاً إلى باريس، وفيها اتصل بالهيئات العلمية المختلفة، وحصل على بعض المعلومات الجغرافية والبحرية، وتحدَّث عنها لمن التقى بهم من الفرنسيين، وصنع الشيء نفسه في لندن، وشرح لهم الغاية من رحلته إلى المغرب متخفياً في زي مسلم، ولم يكن هذا سراً وطنياً ولا حكومياً، لأن جريدة مدريد أعلنت عن الرحلة، وكان هذا تهوراً ما في ذلك شك، على أن أحداً في البلاد التي رحل إليها لم يتعرف على حقيقته وهو ما يرجع في جانب منه إلى الصدفة وحدها، وفي الجانب الآخر إلى قلة الاتصال بين أوروبا والبلاد العربية في تلك الأيام.

وفي إنجلترا قام باديا بصنع الوسائل التي سوف يحتاج إليها في رحلته، ثم أجرى عملية الختان لنفسه عند طبيب يهودي، منتهزاً فرصة غياب زميله، الذي ذهب ليجمع بعض النباتات التي يحتاج إلى دراستها، وعندما عاد روخاس مع الفجر وجد صديقه باديا شاحب اللون، غاض الدم من وجهه، وعرف منه الأمر، وتلقى النصيح بالآلا يخضع لهذه المغامرة المربعة مهما كان الأمر.

ومن لندن استقلا الباخرة «جورج» إلى مدينة

قادس في جنوب إسبانيا، ووصلها في 23 نيسان (أبريل) 1803، وفي الباخرة استقر رأيهما على أن يحمل باديا اسم علي بك عبدالله، وروخاس اسم محمد بن علي، ويبدو أن هذا لم يكن مقتنعاً بالرحلة فتخلف في قادس، وفي 29 حزيران (يونية) عبر باديا إلى طنجة وحده، ولم يرد أن يعلم قنصل إسبانيا في المدينة بالأمر، لأنه خلف أخاه في المنصب، وملكاً في المغرب مصالح هائلة، ويعارضان بقوة أي تغيير في الموقف، ووصفه باديا في رسالة بعث بها إلى جودوي بأنه يملك عدداً كبيراً من النساء في منزله، وتعامله الدائم معهن جعل شخصيته رخوة طرية، وله علاقات مع كل تجار المغرب، وإذا أحس بأي خطر على ثروته فلا شك أنه سوف يستخدم كل قدراته للحفاظ على ما يملك، مما يمكن معه أن يشعر المغاربة والقناصل الأوروبيون بالخطر.

قدَّم علي بك نفسه في طنجة على أنه مسلم سوري، درس العلوم منذ طفولته في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وإنجلترا، ولهذا نسي لغته القومية تقريباً، ولو أنه محافظ على أوامر القرآن الكريم. ويرغب في أن يعود ويتعمق في دين آبائه، وداوم على الصلاة في المسجد الجامع، وأخذ يوزع الصدقات على الفقراء والمساكين، ووضع زيراً على باب المسجد ليشرب منه الناس، وتنبأ بالكسوف والخسوف الذي حدث فعلاً في 15 شباط (فبراير)، وبذلك ذاعت شهرته حتى بلغت فاس وتطوان والرباط، وتوثقت صلته بكبار رجال المدينة، العشاش حاكمها، وعبدالرحمن مفرج قاضيه، وبو عراقية ابن أحد أولياء المدينة الكبار، ولأنه كان يجهل اللغة استخدم يهوديين سفريدين يخدمانه ويقومان بالترجمة.

وأثناء إقامته في طنجة جاءها السلطان مكرهاً، لأن سفينة مغربية يقودها الرئيس إبراهيم لبارس استولت على سفينة أمريكية، فتدخل الأسطول الأمريكي، واسترد سفينته، وأسر الرئيس إبراهيم، ورفضوا أن

بك يمكن أن تثق في كل ما يقوله لك عن نفسه شخصياً، وإذا أتحت لك الفرصة تحقق من صدق أجوبته بأسئلة مفاجئة توجهها إليه، وأدعوك إلى أن تقدم له خدمات جلية إذا طلبها، وأن تسهم في كل ما يمكن أن يجعل إقامته طيبة في المغرب».

وثمة رسائل أخرى توصي به أرسلها أصدقاؤه من إنجلترا إلى القنصل الانجليزي في طنجة، وإلى أسرة جاد الله Guedallas اليهودية، وهي تقيم في مجادور من عمالة الساورة وتحترف التجارة، وفيها يطلبون مساعدة هذا الرحالة، وقد تأثر باديا بهذه المشاعر، نظراً لقصر المدة التي قضاها في لندن، وقلة تحدّثه عن المهمة التي سوف يقدم عليها. وكانت الرسالة الموجهة إلى القنصل الانجليزي تحذر منه فيها يبدو، لأنه في ردّه على وزير المستعمرات البريطاني أفاد بأنه يراقب نشاط هذا السوري الغالي (نسبة إلى بلاد الغال، أي فرنسا)، ومشيراً بأن الإسبان يبذلون جهداً كبيراً لكي يكسبوا أصدقاء في المغرب، عن طريق توزيع أموال كثيرة.

وكانت المخاطر التي تولّدت عن الرسالة الموجهة إلى آل جاد الله اليهود أكثر من غيرها، لأن اليهودي الانجليزي الذي كتب لهم طلب منهم أن يسهلوا لعلّي بك الأموال التي يحتاجها، ولم يخف عنهم أنه جاسوس متخف.

وقد أخطر جودوي نائب القنصل الإسباني عن طابع رحلة باديا، وأمره أن يضع نفسه تحت تصرفه، وأن يكون الواسطة في تقديم المساعدات المالية وتبادل الرسائل، وفي الوقت نفسه كلف الكولونيل فرانسيسكو عمروس الضابط في وزارة الدولة ومكتب الحرب أن يتابع خطى باديا، وأضاف على الموضوع اهتماماً خاصاً، وأحاطه بكتبان شديد، ولم يشر إليه أبداً في الرسائل التي كان يرفعها يومياً إلى الملكة ماري لويزا.

يطلقوا سراحه إلا إذا جاء السلطان شخصياً إلى طنجة ليصدق على الاتفاقات القائمة بين البلدين ويؤكدّها. واغتنم علي بك الفرصة فحاول أن يرى السلطان، ويتعرف إلى الشخصيات الكبرى في البلاط المغربي، ومن بينهم مولاي عبد السلام، الأخ الأكبر للسلطان، وكان أعمى فاجراً، منغمساً في الملذات وغارقاً فيها حتى أذنيه، ومغمرماً ببقاء الأجانب والتحدّث إليهم، ورئيس الديوان محمد السلاوي، وصهره مولاي عبد الملك إدريس، وقد اهتم السلطان فيما يذكر بأعماله العلمية، وأذن له مولاي سليمان أن يزور المغرب، ولكنه لم يستطع خلال إقامته في طنجة أن يرى السلطان شخصياً.

وفي ذلك الوقت تلقى قنصل فرنسا في المغرب، وكان يحمل اسم «القوميسر العام للعلاقات التجارية» رسالة من تاليران وزير الخارجية الفرنسية في 21 أيلول (سبتمبر) 1803 يوصيه فيها بأن «تركياً من حلب، يدعى عثمان بك، ويملك ثروة طائلة، كان موضع اضطهاد شديد، فليجأ إلى إيطاليا منذ زمن طويل، مع زوجه وبنتيه وخادم، ولم يبق من نسله إلا ابنته علي، ورغب في تربيته تربية عالية، ونظراً لمستواه الاقتصادي المرتفع أرسله في رحلة إلى فرنسا وإنجلترا حيث تفرغ تماماً لدراسة العلوم، وعرف كيف يحتفظ بعلاقات وثيقة، وصدقات قوية، مع العلماء الذين التقى بهم أو كان يتردد عليهم، وقد كان في باريس منذ أربعة أعوام حين تلقى الخبر بوفاة والده في قرطبة، فذهب إلى هناك ليأخذ ممتلكاته، ثم قرر أن يزور البلاد الإسلامية، وقبل أن ينفذ خطته عاد إلى فرنسا ليتعمق في الدراسة، وقام برحلة ثانية إلى إنجلترا لكي يرتب أموره، لأن والده أودع في البنوك البريطانية بقايا ثروته، ومن هناك أبحر إلى قبادس حيث ظل زمناً، ثم رحل إلى طنجة ولا يزال فيها حتى الآن فيما أتصور.

«وطبقاً للمعلومات المشجعة التي وصلتني عن علي

لرغبة الجماهير النائرة في الرباط، والتي كانت تطالب بمنع التجارة مع الكفار، فأصدر قراراً بمنع تصدير القمح من ميناء الرباط، ومع أن إسبانيا كانت قد وقعت عام 1799 معاهدة سلام وصداقة مع المغرب، تنظم شؤون الصيد والتجارة والإبحار، لكنها لم تطبق واقعاً، ذلك أن الطاعون الذي اجتاح المغرب في تلك الأيام أدى إلى تعطيل الاتفاقات التجارية، ولم تكن إسبانيا تسمح بأن يدخلها شيء من المغرب غير البريد، مرة كل أسبوعين، خوفاً من العدوى، وعندما انتهى الوباء رفض المغرب تطبيق المعاهدة ولم يسمح بالتصدير إلا في عام 1801، ومن مينائي الدار البيضاء ومجادور، ومع ذلك فإن طلبات القمح لم تنفذ.

فشلت مهمة عمروس في الحصول على قمح من المغرب، وفي ذلك الوقت كانت الأخبار والتقارير تشير إلى هجوم محتمل على مليلة يقوم به مولاي سليمان شخصياً، ولم يكن السلطان يخفي رغبته في أن يهاجم مدينة سبتة ويستولي عليها، وطلب مدافع من إنجلترا لحصارها، وفي عام 1807 عرض وزيره السلاوي على القنصل البريطاني أن ينفرد وطنه بحق الحصول على القمح والحبوب من المغرب مقابل أن تقوم القوات البريطانية بغزو سبتة وتسليمها للمغرب.

كان جودوي يعرف أن باديا مضى إلى المغرب كعربي لا كإسباني، أمير عباسي ينحدر من قبيلة الرسول عليه الصلاة والسلام، والواقع أنه لم يقل في المغرب شيئاً من هذا، وإنما كان يعرف فقط بالحلي دون عباسي أو أمير، ولعله أخذ هذا اللقب عند عودته إلى أوروبا. وألح عليه أكثر من مرة أن يكسب ثقة السلطان كلما أتحت له الفرصة، وأن يوعز إليه بطلب مساعدتنا وتحالفنا ضد المتمردين الذين يقتلون إمبراطوريتهم ويهددون عرشه، غير أن الأعوام التي

كان الكولونيل عمروس يتصل بباديا مباشرة أو عن طريق نائب القنصل، واحتفظ بكل الرسائل والوثائق الخاصة بالمغرب في بيته، وهو مسؤول في جانب عن الأسطورة التي حاكها المهتمون بأفريقيا حول باديا، والمدائح التي أضفاها عليه غير مألوفة وتتسم بالمبالغة الشديدة وكان يهدف من ورائها إلى أن يمدح وزير الحربية بطريق غير مباشر، فهو يدعو بالمقدام والفطن والنبيل، الذي يريد أن يقدم مملكة كاملة هدية لإسبانيا، ولم توات أحد قبله الشجاعة ليختن حياً في العلم، وهو رجل يجري في عروقه دم الأبطال الإسبان الذين غزوا العالم الجديد.

وصل عمروس إلى طنجة في الوقت الذي وصل فيه علي بك، وهو الاسم الذي سوف يحمله باديا منذ الآن، وبقي فيها أربعة شهور كاملة بعد خروج علي بك إلى مدينة فاس، أي إلى شباط (فبراير) 1804. وفي مدينة طنجة تبادل الرأي حول الخطة التي وضعها علي بك لفتح المغرب، وفي الأيام التي أمضاها وحده حاول أن يضيف مزيداً من التدقيق في القسم الخاص به.

كانت العلاقات الإسبانية المغربية تمر في هذه الفترة بمرحلة حرجية، اقتضت مزيداً من العناية بهذين المغامرين، وتأتي مشكلة صيد السمك في المقدمة (لاحظ أن المشكلة لا تزال قائمة حتى الآن) والحاجة إلى إذن السلطان لكي تستطيع استيراد القمح، لمواجهة أعوام الجذب، وقلة المحصول التي تمر بها. وكانت المبادلات التجارية قد بلغت أوجها في عهد سيدي محمد بن عبد الله (1756-1790)، ولكنها توقفت باستيلاء مولاي يزيد على العرش (1790-1792)، وما كانت تحصل عليه كانت تستورده من الجنوب حيث الأمير الثائر مولاي هشام، وكان يتلقى الدعم من إسبانيا.

وبعد انتصار مولاي سليمان، وكان فقيهاً متديناً، حريصاً على تنفيذ الشريعة الإسلامية، استجاب

أمضاها علي بك في المغرب كان هذا يتمتع بالرخاء والازدهار والسلام.

وفي رسالة أخرى بحث جودوي علي بك: «إذا لم تستطع أن تقنع السلطان بما سبق فعليك أن تكتشف المملكة بوصفك رحالة، وأن تتعرف الى مختلف القوى، وأن تعلم آراءها، وأن تستخدم ذكاءك مع أعداء السلطان، حتى إذا دخلوا في حرب معه يمكنهم أن يعتمدوا على مساعدتك، وأن تنفق على مصالحنا المتبادلة، وأن تكون لنا غاية أبعد: أن نصبح سادة جانب من الإمبراطورية المغربية، وهو ما يعيننا أكثر».

أعد علي بك خطة لفتح المغرب، أو جانب كبير منه على الأقل، تعتمد على استثمار الخلاف القائم بين السلطان وفقهاء مدينة فاس، والسخط السائد بين جماهير الرباط وسلا لضياح تجارتهم مع المسيحيين، والاتصال بشيوخ القبائل في جبال الأطلس وإقناع السلطان بالتحالف مع إسبانيا وطلب العون منها، فإذا رفض ذلك عرضه على رؤساء المتمردين وأنقذهم به، وبالتعاون فيما بينهم، وبلغت به الأمان غايتها فراح يحلم بنفسه سلطاناً يجلس على عرش المغرب، أو يضع عليه سلطاناً جديداً من صناعه.

والواقع أن الاثنين، علي بك وعمروس، كانا يجهلان الموقف العسكري في المغرب تماماً، وأكثر جهلاً بموقف القبائل في جبال الأطلس، ولم تكن هذه تخضع للسلطة المركزية، ولم يسبق أن زارها رحالة أجنبي، ولم ير علي بك أي رئيس من رؤساء القبائل الجبلية، وحين عرض على السلطان إقامة تحالف بينه وبين إسبانيا، كان ردّ السلطان عليه، بأنه يفضل أن يقود علي بك جيشاً يعيد به الإسلام إلى إسبانيا.

وقد قام علي بك بهذه الرحلات، طبقاً لاعترفته، مصحوباً بحرس محدود جداً: أربعة جنود رافقوه من طنجة إلى فاس، واثنان عند الخروج من هذه، وخمسة في رحلته إلى مجادور، وهو يكفي للبرهنة على أن

أهميته لدى البلاط المغربي لم تبلغ الحد الذي ينسبها من الأهمية.

وعملياً، على النقيض مما في خططه، تجنب أن يقترب من الأراضي التي في قبضة الشائرين، وحين أراد الانتقال من فاس إلى مراكش لم يذهب إلى هذه مباشرة حتى يتجنب أي لقاء مع قبيلة زمور الشائرة، وإنما انتقل من فاس إلى الرباط، ومن هذه إلى مراكش. وفي هذه المدينة الأخيرة، وكانت العاصمة، أحسن السلطان استقباله، وعامله كزائر ممتاز، وأنزله في قصره الريفي في سمالية، وكان ينزله السفراء الاسبان فيما سبق، وأسكنه بيتاً في المدينة، وبعد إقامته خمسة أسابيع في مراكش، قام في 26 نيسان (ابريل) برحلة إلى ميناء مجادور، وعاد منه في 15 أيار (مايو).

تعدّ هذه الفترة من أيام علي بك في المغرب المعها، نظراً للرعاية التي أضفاها عليه السلطان. ولدنا عنها تقريران، أحدهما كتبه علي بك نفسه، والثاني كتبه جيمس جري جاكسون نائب القنصل البريطاني في مجادور، وطبقاً لروايته، كان السلطان مبهوراً بمعارف علي بك الفلكية، ومتحمساً له، ولم يغب عن اعتنايه لحظة واحدة مما أثار غيرة منجم القصر وحسده، وشعوره بالخوف على مهنته، فحاول أن يدس بينه وبين السلطان، ولكنه لم يوفق.

وتقرير جاكسون بالغ الأهمية، لأنه يصحح أخطاء علي بك، يطال من مبالغاته، فإذا قال علي بك أنه حقق في أدنى جنوب المغرب شعبية هائلة، وأنهم كانوا من أنصاره ويحيون لزيارته باستمرار، ذكر جاكسون نقيض هذه الرواية، وأشار إلى العدواة التي يكنها باشا مجادور لعلي بك، وحتى باشا مراكش نفسه كان ينطوي على مثلها، وكان الأول فيها يشك في تنكره، فجعله يزور القنصل الاسباني ليكتشفه، وبعث به إلى تاجر فرنسي كان يتصرف كممثل شبه رسمي لفرنسا، ولكن الأمرين لم يؤديا إلى نتائج حاسمة، فقد أجاب

كلاهما بأنه يتكلم اللغتين كواحد من أهلها.

وفيما يتصل بباشا مراكش، وهو عمر بوسنة، فإن علي بك يقدمه بوصفه صديقاً له، على حين يشير جاكسون إلى أنه كان يشك في شخصيته، فضيق عليه، ولاحق الذين يترددون عليه ويطلبون أموالاً منه ومنعه من زيارة الجنوب بحجة أن السلطان منع رحيله. ويذكر جاكسون أيضاً أن علي بك اتخذ لخدمته إسبانيين كانوا قد ارتدوا عن المسيحية واعتنقا الاسلام، لأنه دين أسلافهم، وفي الوقت نفسه ينقلان إليه الأخبار، وكان بيته يضم رئيساً للخدم من أهل البلد، وهو الشريف مولاي أحمد، أو حامد، وذكره علي بك في الرحلة مرة واحدة إلى جانب عدد من النساء.

ولما كان المغاربة ينظرون إلى الرجل غير المتزوج نظرة شك وسوء فقد حصل في طنجة على جارية، وتلقى هدية في فاس جارية أخرى سوداء، ولم يكن راضياً بها، ولم يخف اشتمزازها منها، بسبب ملامحها وتقاسيم وجهها، وتنن راثحتها، وفي مراكش تلقى جارتين أخريين هدية من السلطان، واحدة بيضاء والأخرى سوداء، حملهما إلى بيته لينضمها إلى البقية، ولكن الرجل كان زاهداً في الجنس، ويرتعب منه أحياناً، وبقيت الجوارى محبوسات في البيت، لا يتصل بهن سيدهن إلا نادراً، ومن هذا الاتصال النادر رزق بولد من واحدة منهن.

وفي مراكش عاد علي بك يحلم بخطط الأمس من جديد، فكتب من مجادور إلى جودوي في 15 أيار (مايو) 1804 رسالة يؤكد فيها على أن تنفيذ الخطة قد حان، ويجري بالمبالغة إلى آخر مداها فيقول: كل الباشوات هنا خدامي، وأنا سيد هذه الإمبراطورية بالحلب أو الخوف أو الاحترام، وظهوري على رأس ثلاثة آلاف جندي يجعلهم يسارعون بتقديم التاج إليّ، وأنا الآن اعتمد على عشرة آلاف، وأنفذ ما ذكرته لكم في الخطة دون أن أخرج عليها، وقد

احتاج إلى معاونة القوات الإسبانية في سبتة، فأرسلوا إليها ما ترونه ضرورياً من قوات، ولحملوا معهم ألفي بندقية، وأربعة آلاف «سونكي»، وألفي مسدس، وبعض المدافع من مقاسات مختلفة، ولا احتاج الآن لمزيد من الأموال.

وفي الرسالة أيضاً تكرار لما سبق أن قاله من أن الشعب ساخط، وأن أبناء مولاي سليمان عاجزون عن خلافته على العرش، ولكنه لا يقدم أية معلومات عن حواراه مع السلطان، ولا من هم الذين سوف يشتركون في الثورة عليه، والجديد فيها أن قبائل دكالة وسرغنة وموظفي المخزن يحنون إلى عهد مولاي يزيد، ولم ينس أن يشير إلى أن زيارة القوات الإسبانية في سبتة يمكن تبريره لأنها لحراسة العدد الكبير من السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، ويوجدون في سجنها.

ويلح على المرء سؤال، عرض أيضاً للباحثين الأوروبيين بعامة، والإسبان من بينهم بخاصة: لماذا طلب علي بك هذا القدر من الأسلحة لدعم ثورة لا توجد في عالم الواقع؟ أترأه أراد أن يخلق جيشاً خاصاً يعمل لحسابه على الطريقة التي كان يعتمد عليها شريف وُرَّان، وبهذا تنمو شخصيته، أم ظن أن مجرد السلاح يكفي لاشعال الثورة ضد السلطان، ولعله - وهو ما أرجحه - كان واثقاً أن السلاح لن يأتي في النهاية، وبذلك يجد مبرراً لفشل مهمته.

وقد اهتم جودوي - كعادته - بالأمر، وكتب إلى قواد الجيش في جنوب الأندلس بأن يكونوا على استعداد لتقديم المساعدات الضرورية حين تطلب منهم، وتعزيز حامية سبتة بعشرة آلاف رجل، وأن يبرروا حركتهم هذه بأنهم في مناورات. وأطلع رئيس الوزراء الإسباني الملك كارلوس الرابع على تقارير علي بك، وحدثه عن المكانة التي بلغها في البلاط المغربي، ولم يكن الملك سعيداً بما يسمع، ولا راضياً عن وسائل الرحالة الإسباني وخائفاً من تدخل القوى

الأجنبية وبخاصة فرنسا، فحاول أن يضع رئيس وزرائه الحالم على أرض الواقع، ورفض الموافقة على خطط باديا ومطالبه، وتوقفت كل الاستعدادات.

وقد أسف المركز سولانا على القرار الملكي، ورأى أنه أضاع مجداً باذخاً على إسبانيا والملكية وجودوي، وأن تنفيذ خطط علي بك كان انقلاباً ستدهش له أوروبا، ويعلي من وضع إسبانيا وسياستها ويشار لذكريات سبعة قرون لا تمحي من العبودية والذل لأجدادنا، فرضها عليهم هؤلاء الأفارقة الكريهين، وتنقم للضرر الذي تسببه لنا جبرتهم العاشية، لطابعهم الوحشي الذي تمليه عليهم طبيعتهم أحياناً، ولسلاحهم لخصومنا الأوروبيين بإقامة الكثير من المنشآت على شواطئهم لإيذاء تجارتنا وبحريتنا.

وكل هذه الاعتبارات يجب أن تدفعنا إلى ضرورة تأمين استقلالنا، وأن نضع هؤلاء الهمج في مقام يستحيل عليهم فيه أن يحدثوا لنا ضرراً. ولقد كان ممكناً أن يقوم الملكان الكاثوليكيان (فرناندو وإيزابيل اللذان استوليا على غرناطة آخر معقل أندلسي عربي) أسلاف ملكنا بالقضاء على قطاع الطرق الكريهين هؤلاء، ولكن نقص حمية الشعب، والبخل الذي لم يكن يرى أبعد من خزائن الثروة في العالم الجديد، والدخول في تحالفات مع قوى أوروبا الأخرى أو ضدها، كانت عقبة في طريق تدمير هؤلاء الذين يواصلون ازعاجنا بقوة، منذ كارلوس الأول حتى اليوم، ومن الضروري أن نلوح لهم دائماً بقوتنا على نحو كاف، دون أن نصل إلى اجتثاثهم...».

وأمضى جودوي صيف 1804 يحاول إقناع الملك، ولكن هذا لم يعره سمعاً، وبقي عند موقفه رافضاً، وفكر رئيس الوزراء أن يعصي الملك، وأن يصدر قراراً بتنفيذها على مسؤوليته، ولكن مرض علي بك أعفاه من هذا الأمر، وعلى أية حال إذا لم يستطع أن

يرسل إليه قوات فلا بأس أن يرسل أموالاً، وأصبحت القضية من أسرار الدولة العليا، ولم يعرف بها أحد غير جودوي وعمروس وباديا، والمركز سالونا على نحو أقل، ونائب القنصل الإسباني في مجادور. وقد تلقى علي بك رسالة باعتراض الملك، وعشرة آلاف دورو* عن طريق نائب القنصل، لخدمة الأغراض التي يسعى إليها.

في هذا الوقت كان علي بك يقيم في قصر السلطان الربيفي في سملاية، ويشعر بخطر إرسال السلاح والقوات، فلما تلقى خبر الاعتراض استراح تماماً، وألقى مسؤولية الفشل على هذه الظروف، إذ كان يستحيل عليه - فيما يرى - أن ينفذ مخططة على غير رغبة البلاط الإسباني، ولو أنه رد على هذه الرسالة، مظهراً امتعاضه من القرار، وملوحاً بأنه كان من العرش قاب قوسين أو أدنى، وأن القرار وضعه في موقف حرج، وأنه بإزائه كما لو كان قد فقد عشر معارك حربية.

إزاء هذا القرار عاد علي بك إلى فكرته الأساسية من الرحلة إلى قلب أفريقيا مخترباً الصحراء، ورأى ذلك أفضل من الرحلة إلى المشرق للقيام بالحج، فلكي يرحل إلى المشرق يحتاج إلى إذن من السلطان، وطبقاً لجاكسون حصل على إذن باختراق جبال الأطلسي في اتجاه الجنوب، وانضم إلى إحدى القوافل فعلاً، ولكن باشا مراكش كان يشك في تصرفاته، فتدخل لدى مولاي سليمان، وألغى التصريح المعطى له، فلم تبقى أمامه وسيلة لكي يتابع رحلاته غير أن يتجه إلى مكة.

وبينما باديا في مراكش يسترد عافيته ويقبّل أموره، وقع حدث عالمي جعله يعيد حساباته مرة أخرى، ففي كانون أول (ديسمبر) من العام نفسه توقفت العدواة بين فرنسا وحليفها إسبانيا لمواجهة إنجلترا،

(*) عملة اسبانية تساوي خمس بيسيتا.

أوفي مناخ ينضج غضباً من أسر إنجلترا أربع فرقاطات إسبانية، استطاع جودوي أن يقتنع كارلوس الرابع بالموافقة على خطة غزو المغرب، وتلقى علي بك رسالة من عمروس يعلمه فيها بأن الملك منح القائد العام الإسباني صلاحية اتخاذ ما يراه في صالح الملكية في هذه الحرب الجديدة ضد الإنجليز، وهم يتخذون من جبل طارق نقطة انطلاق، وهو إسباني ومن مواء المملكة، وفيه يمنون أساطيلهم التي تحدث لنا خسائر لا تحصى، وتتخذ منه مراكبهم الصغيرة والكبيرة مرفأ تلوذ به، ويسبب لنا حصاره كثيراً من النفقات.

وفي اليوم نفسه وجه جودوي رسالة إلى المريكز سالونا يعلمه فيها بأن «الرحالة إلى أفريقيا يصر على أن نقوم بعملية في تلك القارة يمكن أن تكون مفيدة جداً لإسبانيا في الظروف الحالية، وعادلة للغاية، ويرهن على كثير من الشجاعة واليقظة». وقد منح علي بك رتبة بريجادير (Brigadier) في الجيوش الملكية الإسبانية في 16 آب (أغسطس) 1804، ولو أن أحداً لم يناده بهذا اللقب، إلا بعد ذلك بعشر سنوات خلال منفاه في باريس.

وضع علي بك خطة جديدة لغزو المغرب، ضاع نصّها ولم يصلنا، وأقرب الظن أنها قريبة الشبه بالأولى، وتهدف إلى إثارة قبائل منطقة تادلا على السلطان، وأن تنضم إلى سيدي العربي والولي بوجعد وسكان شرق المغرب في تمردهم، وأما الأسلحة المطلوبة فهي نفس ما طلبه في المرة السابقة.

وحاول علي بك في رسائله أن يعطي الانطباع بأنه يتمتع بمكانة عالية في البلاط المغربي، وهو ادعاء تكذبه الوقائع، فقد تواجد مع السلطان في فاس ولكنه لم يلقه، وحين سقط السلطان مريضاً، ولزم سرير، واستدعى أطباء إنجلترا، وأغمي عليه في إحدى صلوات الجمعة أمام الجماهير، وشاع موته في المغرب كله، أشار عليه السلاوي رئيس الديوان أن

يذهب إلى الشمال ليقتضي على هذه الاشاعات. وعندما رحل السلطان فعلاً لم يصحبه معه، ولو كان حفيماً به، كما ادعى لنفسه، لضمه إلى حاشيته، ولم تكن تخلو من الأجانب.

ومن جديد يتحدث علي بك إلى جودوي عن الخلاف بين السلطان وسيدي العربي وأنه في انتظاره مع رجاله، ولكن العربي لا يحضر، وهو يوزع الذهب رشاً على من يتوقع منهم الثورة، أو هكذا يقول، فإذا فشلت خطته مضى إلى الجزائر، ومنها سوف يلوذ بالجبال.

ولكن علي بك لا يكاد يبلغ مدينة فاس حتى يحس باشا المدينة غرضه، ثم ينصحه أن يرحل بأسرع ما يمكن، ويسلمه رسالة مطولة من السلطان، ترجمها علي بك نفسه إلى الإسبانية، ووجدت في أوراق جودوي، وقبل أن يبارح المدينة استطاع أن يقابل مولاي عبد السلام، فأعطاه هذا رسالتي توصية، واحدة لداي تونس، والأخرى لباشا طرابلس الغرب. وعندما وصل إلى مدينة وجدة بهدف أن يرحل إلى مصر، علم بثورة سكان وهران على الحاكم التركي، مما جعل السير في الطرق مستحيلاً، وبخاصة أنه لم يكن يملك غير حراسة ومحدودة. وفي هذا الوقت بدأت موارده تتناقص، وخاف على نفسه من رجال البلاط، فقد ينقلون إلى السلطان شكوكهم ومخاوفهم عن هويته وغاياته، فلجأ إلى رئيس قبيلة صغيرة قريبة من وجدة، هم بنو أبي حمدون، وطلب منهم أن يمدوه بالحراس والحماية في وجهته إلى أراضي بني سوس.

وعلى مسافة ميل من وجدة اعتقله فريق من الجند، بقيادة الديلمي، أرسلهم السلطان، ولديه أوامر ألا يتركه يرحل قبل أن يتأكد من الأمان في الطرق التي سوف يسلكها وغضب علي بك من اعتقاله، وأرسل بريداً إلى مولاي عبد السلام، وعندما تلقى هذا رسالته سمح له بأن يرحل في 3 آب

(أغسطس)، ولكن ليس شرقاً إلى تلمسان، وإنما غرباً نحو طنجة، حيث يجب أن يأخذ الباخرة.

وفي حراسة الجند تابع طريقه نحو الغرب دون أن يدخل مدينة واحدة إلى أن بلغ العرائش^(*)، حيث دخلها في 17 آب (أغسطس)، وكان يحكمها محمد السللاوي وزير السلطان، وسبق لعلي بك أن تقابل معه في طنجة ومكناس والرباط، وإليه عهدوا بطرد علي بك في 13 تشرين أول (أكتوبر)، وأن يمنع أي انسان من حاشيته من الإبحار معه، ولم يكن أمامه إلا أن يطيع وظلت زوجه مهنة المغربية على الشاطئ وحيدة، وقد حيل بينها وبين زوجها، على حين أصابته إغفاءة من الحزن العنيف لترحيله بالقوة.

وفي 13 تشرين أول (أكتوبر) 1805 صعد علي بك مركباً يقوده الرئيس عمر، بعد ضجيج هائل في طريقه إلى طرابلس الغرب، وفي الطريق واجهت المركب بعض العواصف، وقامت بزيارة قصيرة لجزر قرقة على مقربة من الشاطئ التونسي، وفي 11 تشرين الثاني (نوفمبر) وصل طرابلس الغرب مع مجموعة من الحجاج كانت ترافقه، وخشي أن يكون الوزير السللاوي قد أخبر باشا ليبيا بأسباب طرده من العرائش، فاتخذ منذ البدء موقفاً متحفظاً.

ومع ذلك استأجر بيتاً كبيراً نعرفه من الرسوم التي خطها له بنفسه، ولم يلبث أن أقام علاقات مع القناصل والجاليات الأجنبية، ودون أن يفقد عادة التبجح، وأنه ينحدر من عائلة عريقة، أخذ يؤكد أن يوسف كرملي حاكم ليبيا، اتخذه أخاً، وودعه باكياً، عند رحيله إلى الاسكندرية في 26 كانون الثاني (يناير) 1806.

وقد تركت طرابلس انطباعاً ممتازاً في علي بك، إذ وجدها عامرة بالمباني والمتاجر وغيرها، على النقيض تماماً مما رأى في المدن المغربية، وأحس برد الفعل في

مينائي مودون ومورية اليونانيين، حين ضلت السفينة وجهتها، وحلتهم خطأ إلى هناك. واضطر علي بك أن يصطدم بالقبطان بعد أن صبر عليه طويلاً، وكان بحاراً قديماً، عديم الكفاءة تماماً لا يكاد يفقه من الشراب، وداخله الشك في هذا الرحالة الإسباني، يحمل عدداً من الآلات الفلكية، يحاول أن يسجل الطريق، وأن يهديه إليه، وفجأة ما كادت السفينة تقترب من الاسكندرية حتى غير وجهته، ويم إلى أعلى البحر، فواجهته عواصف عاتية فتوقف في ليماسول من قبرص في 7 آذار (مارس). وظل علي بك في قبرص أكثر من شهرين، ولم تكن له غاية دراسية فيها، فاكتمى بوصف الأطلال المتناثرة في الجزيرة، ووجد أسقفها يعيش كأمر مستقل تقريباً مقابل جزية يدفعها للخليفة العثماني.

وأخيراً وصل الإسكندرية في 12 أيار (مايو) 1806، ويقول إنها كانت مدينة متواضعة، لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف جلهم من العرب، ولكنهم في العشرين عاماً الأخيرة تجاوزوا مئة ألف نسمة، وقد أعجبته، وأثنى عليها، وعقد مقارنة بينها وبين مدينة بلنسية في إسبانيا، ولا ندرى لماذا بقي فيها قرابة نصف عام، وبعدها اتجه إلى القاهرة عن طريق النيل، في رحلة دامت ثلاثة عشر يوماً، وأوهم الذين فيها أنه مبعوث إسلامي في طريقه إلى مكة، فوجد من شيوخها وعلائها استقبلاً حسناً، ومن مصر عاود الكتابة إلى جودوي يحاول أن يحبي في أعماقه الأحلام القديمة، ولهذا دوام الاتصال بالجالية المغربية التي تقيم في القاهرة، وكانت كثيرة العدد، ولها شيء من نفوذ بين رجال الدين وفي عالم التجارة.

وفي القاهرة وثق علاقته بمولاي سلامة المطالب بعرش المغرب، وكان شمال المغرب: تطوان وطنجة والعرائش وشاون ووزان، نادى به سلطاناً بعد وفاة

(*) مدينة مغربية على الأطلسي جنوب غربي طنجة.

مولاي يزيد، ولكنه هزم أمام أخيه سليمان، فلجأ إلى مصر، وأقام فيها عشر سنوات كاملة في انتظار اللحظة المواتية.

في القاهرة بدأت رحلة علي بك تأخذ وجهة جديدة، فاصبح الهدف العلمي منها يجيء في المقدمة، إلى جانب فكرة أخرى كانت تتردد في أعماق جودوي ووشوش بها في مسامع باديا عند بدء الرحلة، وهي إمكانية فتح طريق تجاري جديد بين إسبانيا والفلبين يمر عبر مصر، عن طريق الإسكندرية - القاهرة - السويس. وفي هذه، كما في غزو المغرب، لم يستطع علي بك أن يقوم بأي عمل جاد، واكتفى بأن يقدم معلومات مفصلة عن الإنتاج الذي رآه في الأسواق والمتاجر في طرابلس والإسكندرية والقاهرة. وتكتسي روايته للأحداث السياسية في هذه الفترة أهمية بالغة، فقد وصل القاهرة في اللحظة التي بلغ فيها محمد علي أوج توهجه، وشهد لحظة تمكنه نهائياً من الحكم وتصبح شهادته وثيقة إذا عرفنا أنه، فيما يبدو، استطاع أن يكون على اتصال مباشر، ومتعدد، مع بعض أبطال ممثلي التغيير، مثل: قبودان باشا التركي، والسيد عمر مكرم وحتى محمد علي نفسه.

وذو أهمية بالغة أيضاً حديثه عن الوهابيين في الجزيرة العربية، ويقدم لنا موجزاً لجذور القوى الكبرى التي لا تزال تواصل سيرها متواجهة في عالم الإسلام اليوم: الاندفاع نحو التحديث، مع الإعجاب الأعمى بالغرب، ويمثله محمد علي، والبحث عن هوية ذاتية إسلامية خالصة، تطمح في العودة إلى ماض تراه مثلها الأعلى ويمثلها الوهابيون.

وما لبث الصدام أن وقع بين الاتجاهين!

لم يكن باديا أول أوروبي يزور مكة، فقد سبقه إليها برتينا لودوفيكو، الفارس الروماني، في 1503، والأسير الانجليزي جوزيف بتر عام 1680، وكلاهما ترك رواية مليئة بالخرافات والأساطير والآراء الشخصية الجائرة، وبعدهما جاء نيبور الدانمركي عام

1762 بتكليف من ملك الدانمارك، ولكنه زار شاطئ جدة، واليمن والجانب الجنوبي من الجزيرة العربية من حضرموت إلى عمان، وفي هذه أخذ السفينة إلى بومباي، ولكن إلى باديا يرجع الفضل أكيداً في أننا نملك أقدم رسم وأدق لموقع مكة الجغرافي، وللمعابد القائمة حولها، تصويراً باليد ورسماً تخطيطياً، وعندما جاء بعده الرحالة الانجليزي السير ريتشارد بورتون بنصف قرن من الزمان، نسخ عدداً منها، وأشار كثيراً إلى رحلة علي بك.

ومن الحج عاد إلى مصر في حزيران (يونية)، وبعد أن أقام بها 15 يوماً للراحة رحل إلى فلسطين، وفيها وجد أن ثلثي الرهبان من مواطنيه، ونصف نفقات الحراسة يدفعها وطنه، وقد تقتضي الظروف السياسية أن تدفعها إسبانيا كلها، حين تتوقف بقية الأمم الكاثوليكية عن دفع نصيبها لسبب أو لآخر. وفي أقل من أسبوعين قدم لنا وصفاً تفصيلياً للمعهد، لكنيسة القبر المقدس، وحبرون (الخليل)، والناصره، مع رسوم تخطيطية، ومنها أرسل تقريراً إلى جودوي عن حالة الرهبان الإسبان، لا يزال محفوظاً في دار محفوظات بلدية برشلونة.

ومن فلسطين رحل إلى دمشق، وأمضى فيها أسبوعاً، وترك لنا عنها وصفاً لا بأس به، وقد استرعى الانتباه أنه في هذه الفترة من رحلته أخذ يتنقل بسرعة، وعودنا من قبل على البطء، فهو يتوقف في كل مدينة شهوراً، ولم يقدم لنا تعليلاً أو تفسيراً، أو ما نستطيع أن نلتقط منه السبب، ولكن توصلنا إليه عن طريق آخر، فقد أورد الرحالة الفرنسي الكونت فوربين في كتابه عن رحلته إلى الشرق، وصدر في باريس عام 1819، أنه حين زار محمد علي في تلك الأيام، وكان يحكم مصر وسوريا وفلسطين، حدثه عن شخصية علي بك هذا، وأنه ليس عربياً ولا مسلماً، وإنما هو أوروبي جاءنا متخفياً في هذا الزي، ووراء الاسم العربي، ونحن نعرف

حقيقته، ويقول الرحالة الفرنسي إن محمد علي كان يعتمد على شبكة قوية وهائلة من رجال المخابرات، وأن الخبر انتشر في أنحاء الدولة وأن مفتي دمشق عرف الأمر أيضاً، وهكذا وجد باديا نفسه، لأول مرة في حياته، في حاجة إلى أن يهرب ويختفي.

وهارباً من محمد علي أصبحت القسطنطينية تمثل بالنسبة له حصن الأمان، فاتجه إليها من دمشق، وبلغت النظر أنه لا يكاد يحكي شيئاً عن حلب الموطن المزعوم لأسرته، وفي عاصمة الخلافة أقام في بيت رئيس البعثة الإسبانية مركز المنارة، وكان هذا صديقاً قديماً له، وخلال إقامته التي امتدت شهراً ونصف شهد التمرد الذي أزاح سليم الثالث وجاء بمصطفى الرابع خليفة، لأن الأول كان من دعاة التحديث، وكان الثاني معادياً له، ويعتمد على العناصر الأكثر رجعية، ولو أن خلافته لم تطل غير عام، وأسف على بك لهذا التغيير واعتبر تركيا أكثر البلاد التي رآها همجية.

وفي 7 كانون أول (ديسمبر) وقّع القسطنطينية، وفي 19 منه عبر حدود الإمبراطورية العثمانية وبلغ فيينا في 14 كانون ثاني (يناير) 1808، وأقام فيها حتى 24 شباط (فبراير)، ولا توجد أية معلومات عن إقامته هذه، وعندما وصل ميونخ عانى ثانية من مرض الصفراء، وكان قد اضطره في مراكش أن يلزم السرير ثلاثة أشهر، وهذه المرة ظل الموت واقفاً بالباب ينتظره طوال شهر ونصف.

وصل باريس يوم الأحد 17 من نيسان (أبريل)، ولم يبق فيها فقد غادرها إلى أسبانيا وتوقف في بايونا على الحدود، وبلغها في 9 أيار (مايو)، ولما يشف من المرض، ووجد مجلس البلاط الإسباني مجتمعاً، ورأى الملك كارلوس الرابع، وقد أزيح عنه التاج، وأصبح جوزيف الأول شقيق نابليون بونابرت هو الملك، وطبقاً لعلي بك فإن كارلوس قال له: «... إنك تعرف أن بلادنا قد احتلتها فرنسا، وأن ثمة إمبراطوراً

إلى جانبي، لم أعد أنا شيئاً، إذ ذهب إلى الإمبراطور وتحدث إليه». وعندما أبدى علي بك رغبته في أن يتبع الأسرة الملكية المعزولة ردّ عليه الملك: «لا... لا... من مصلحتنا جميعاً أن نخدم نابليون».

عاد باديا إلى وطنه بعد رحلة دامت قرابة خمس سنوات، ولشد ما وجد إسبانيا قد تغيرت!

ترك وطنه منهكاً، انهارت كل مقوماته الأصيلة، وتراجعت عاداته وتقاليده وأدبه أمام الغزو الثقافي الفرنسي، ونماذج الحياة الفرنسية، تركه مستقلاً، ولكنه في حشرة النزاع الأخير!

وها هو يعود إليه فيجده محتلاً بقوات فرنسية، وإذن فقد كان الغزو الثقافي الفرنسي وهزيمة المجتمع الإسباني تجاه التقاليد الفرنسية الزاحفة، طلائع الاحتلال العسكري، ولكنه وجد مع جنود فرنسا وضباطها شيئاً لم يره طوال حياته، وجد الشعب الإسباني، جلّت الأحداث صداه، وصهرت الأزمات معدنه، فهو متحفز للوثوب والثأر، ينقصه السلاح والقيادة والتنظيم ولكن لا تعوزه روح الشجاعة والاستبسال والفاء، ولم تكن حرب الإسبان مع الفرنسيين قتال جنود تجاه جنود وإنما كانت معارك اشترك فيها الشعب كله: الرجال والنساء، الشيوخ والشباب والصبيان، والعمال والزراع والموظفون والطلاب، وكل الطبقات وكان هتاف الجميع: الموت لفرنسا!

لكن الرحالة الإسباني العائد من الشرق لم يستطع أن يتفهم الأحداث ويتجاوب معها، ويندمج مع أولئك الذين لا يشغلهم غير تطهير بلادهم من الاحتلال الفرنسي، وإنما كان همه تدوين رحلاته وتنظيمها ونشرها، واتصل بجودوي قدمسه إلى الإمبراطور نابليون الذي اهتم بالرحلة، وعهد إلى حاجبه أن يتحدث مع باديا حولها على مهل وأن يكتب له تقريراً عنها. ولم يظهر نابليون أثناء مقابلته للرحالة أي اهتمام بخطته لغزو المغرب، وعلى حين

يؤكد باديا أن الإمبراطور لقيه مرات عديدة، وأنه تحدث إليه بشأن الموضوعات الأفريقية، إلا أن مصادر أخرى وثيقة تقول إن لقاء الإمبراطور له لم يزد على مرتين.

بعد يومين من وصول باديا إلى مدريد في 21 تموز (يولية) 1808 نشر مطبوعاً يتضمن موجزاً لحياته وملخصاً لرحلاته وصمت عن كل ما يتصل بالجانب السياسي لأن الظروف تغيرت، فقد اختفى جودوي راعيه وحاميه من المسرح، ووجد نفسه وحيداً، فقد كان لدى الحكام في هذه اللحظات ما يشغلهم عن الاكتشافات الجغرافية فلم يعره أحد اهتماماً، وعاش تسعة شهور بلا راتب، ثم عين رئيساً للإدارة المالية في شقوية في 25 أيلول (سبتمبر) 1809، وبعدها أصبح حاكم المقاطعة، وحوله قامت إشاعات لا حصر لها، فقد اتهمته الجماهير بأنه يهودي تارة ومجنون، وأنه كان مسلماً، وتارة أخرى بأنه ماسوني وزنديق، وصمت هو دائماً، ولم يشر أبداً إلى أنه من قطلونية.

وفي 5 نيسان (أبريل) 1810 نقل إلى قرطبة، واهتم بتحقيق إصلاحاته ومشروعاته، وأهمها الإبحار في الوادي الكبير بين قرطبة واشبيلية، وأدخل فيها زراعة القطن والبنجر والبطاطس ومع ذلك فقد اصطدم مع الجماهير أيضاً، واتهموه بأنه مديده إلى أموال الأديرة، ومحاكم التفتيش، وتوجهوا بشكواهم إلى جوزيف بونابرت في مدريد، فأصدر قراراً في 15 حزيران (يونية) بنقله إلى العاصمة ليكون تحت الطلب. ثم عين عضواً في بعثة مهمتها التفاوض مع الثائرين في بلنسية وإخضاعهم للفرنسيين، ولكنها فشلت وعادت إلى مدريد دون أن تحقق شيئاً فظل في البلاط بدون عمل محدد، ثم ألقي القبض عليه بتهمة اختلاس المال العام، ولكن مركز المنارة صديقه القديم توسط له فأفرجوا عنه.

إزاء هذه الظروف فكر أن يستغل عرضاً كان نابليون قد اقترحه عليه قبل ذلك بأربعة أعوام،

وذلك بأن يذهب إلى باريس ويعد رحلته للنشر، فذهب إليها في أواخر عام 1812، في اللحظات التي عاد فيها نابليون مهزوماً من روسيا، وكان يحمل أمراً من الإمبراطور بالذهاب إلى باريس لكي يحضر رحلته ويترجمها ويطبعتها، ولكن تنفيذ الأمر لم يكن بالسهولة التي توقعها، لأن تغير الظروف السياسية جعل من الضروري إعادة النظر في الأمر من جديد. وفي 13 تشرين ثاني (نوفمبر) 1813 درست لجنة من العلماء الفرنسيين ملخصاً قدمه علي بك، وأوصت بالموافقة على النشر، وأبلغه وزير الداخلية بأن وزارته سوف تحصل من كتابه على مئتين وخمسين نسخة بسعر ستين فرنكاً للنسخة الواحدة، على أن يخرج العمل كاملاً خلال عام 1814.

أهدى باديا الكتاب إلى لويس الثامن عشر، مطرباً له ومثلياً عليه وواصفاً حكم نابليون بالهمجية، وصدرت الرحلة في ثلاثة أجزاء بعنوان: «رحلات علي بك العباسي في أفريقيا وآسيا خلال الأعوام 1803-1807»، وألحق بها أطلساً، وخمس خرائط ومجموعة من الرسوم تبلغ ثلاثة وثلاثين. ولم يكشف عن اسمه الحقيقي ربما ليترك الباب مفتوحاً أمام عودته مرة ثانية متخفياً إلى البلاد التي تكلم عنها ومع ذلك رفع فيها بعد تقريراً إلى الملك أسماه «ملاحظات عن الفارس باديا» تحدث فيه عن زوجه وأسرته وشجرة النسب الفرنسية النبيلة التي ينتسب إليها، ونلاحظ أنه أضاف إلى اسمه العربي لقب «العباسي» عندما طبع رحلاته، وهو ما لم يجرؤ عليه لا في إسبانيا ولا خلال طوافه بالعالم العربي.

وفي العام نفسه، 1814، وكان خصباً في التغيرات السياسية وثق عرى الصداقة مع أحد أعضاء معهد كلود ازوار، ويدعى ليسل دي سال، أرمل في الثانية والسبعين من عمره، ويسكن بيتاً كبيراً في 95 شارع سيفر، ويضم مكتبة ضخمة تحتوي على ستة وثلاثين ألف كتاب. وكان لهذه الصداقة نتائج مذهلة غير

إلى أحداث المغرب التي أوما لها من قبل، وأكد أنه لا يزال يتراسل مع مولاي عبد السلام، الذي اعتذر له عن قرار السلطان بطرده، ودعاه إلى أن يعود إلى المغرب، وعرض عليه أن يرسل له نساء وجواريه حيث يقيم إذا أراد. ولكن ريتشليو الفرنسي ليس جودوي الإسباني، فلم يشارك الرحالة أحلامه، وأدرك منذ البداية الطابع الخيالي وغير الواقعي الذي كان يغلب على التقرير فيما يتصل باستعمار أفريقيا، وفي أحسن الحالات لم يظهر أي اهتمام بالموضوع.

وعاد باديا ثانية إلى الموضوع في نيسان (أبريل) 1816، إذا كتب إلى ريتشليو حين قرأ في الصحف اقتراح شاتوبريان بتكوين حملة صليبية للقضاء على القرصنة في شال أفريقيا، مؤكداً أن تنفيذ مشروعه «سوف يعطي فرنسا مستعمرات أفريقية غنية، أغني مما كان للإغريق أو الرومان أو القوط، دون أن يكلفها هذا نقطة دم واحدة».

وكما هو الحال في إسبانيا وجد من يأخذ أحلامه مأخذ الجد، بل وجد من يلونها له، وبخاصة صديقه الكولونيل مرنه، ويشير في كتابه «ذكريات حرب» إلى أن لويس الثامن عشر استقبل باديا بحفاوة في لقاء خاص وقال له: «أعرف شعور بونابرت ونواياه فيما يتصل بالمهمة العظمى التي قمت بها، وهي اكتشاف الطريق إلى الهند، وأوامر نابليون رائعة، ولكن ليس من السهل تنفيذها، وسوابقها برهنت على أنه إذا كان في وسع أحد أن يحققها فهو أنت. ولهذا أعلمك يا جنرال ألا تغير الخطة وإنما تمسك بها، ونفذها باسم ملك فرنسا، واستخدم هذا تكليفاً مني، وخلال أيام قليلة فإن وزيرني سوف يصدر الأوامر اللازمة، وعليك بالصمت المطلق. . . أنك تفهم ضرورته».

وفي 23 أيلول (سبتمبر) 1816 توفي ليسل دي سال صهر باديا فأقام هذا في قصره بحجة تسلية الأرمل الصبية، وما لبث أن واجه مفاجأة تعسة، فقد

متوقعة، فقد تزوج العجوز من أسونثيون ابنة علي بك، وهي في العشرين من عمرها، فقوى بذلك المركز الاجتماعي لهذه الأسرة اللاجئة.

لكن لا السعادة الأسرية، ولا الأيام العاصفة التي مرت بها فرنسا، جعلته يتنازل عن مشروعاته، ففي 22 تشرين أول (أكتوبر) 1815 أرسل إلى وزير الخارجية الفرنسي ريتشليو مذكرتين أولاهما عن الخدمات التي أداها لفرنسا في المشرق، والثانية عن استعمار أفريقيا، وكان يُظن أن نص الأخيرة قد ضاع، ولكن عثر عليها أخيراً، ونشرت فعلاً، وفيها يرى أن استعمار فرنسا للمغرب أكثر فائدة من استعمار أمريكا الجنوبية، لقربه، وسهولة الوصول إليه، ووفرة ما ينتجه، وما يمكن أن ينتجه في المستقبل، من السكر والطباق والنيلة والكاكاو والبن والقرمز وغيرها، والمياه الذائبة من ثلوج الأطلس كافية لإرواء مساحات شاسعة في سهل الجنوب، وهو جهل فظيع منه بجغرافية المغرب، إلى جانب مناجم الذهب في السودان، وهي مصدر ثراء لا ينفد.

ونحيء صعوبة فتح هذه البلاد - فيما يرى - من أن غزوها من دولة مسيحية سوف يواجه ضرورة بمواجهة إسلامية شاملة يتحول فيها كل السكان المسلمين إلى جنود مقاتلين، وإذن فللوصول إلى هذه الغاية يجب أن نجد أميراً مسلماً مستتيراً (!!) يقيم دستوراً يتفق مع عادات البلد وتقاليدها ودينها، ويتنازل عن جزء من أرضها لدولة أوروبية. وحتى مثل هذا الأمر لن يكون سهلاً، وقد حاول الإنجليز القيام بهذه الحملة فكانت النتائج سلبية (يشير بالتأكيد إلى هزيمة الإنجليز الساحقة أمام المصريين في موقعة رشيد عام 1807)، كما أن الأمراء الذين تربسوا في بلادهم الأصلية تغلب عليهم هذه الرذائل الأربع: الكسل، وعبادة اللذة، والبخل، والطغيان.

وقد اقترح الجنرال باديا - وبهذا القلب وقع التقرير - أن يقوم بهذه المهمة أوروبي يتظاهر بالإسلام، والمخ

أجزاء عام 1836، وفي عامي 1888-1889 تمت ترجمته إلى اللغة القطلونية التي يتكلمها شمال شرقي أسبانيا، ثم توالى طبعاته بعد ذلك في كل اللغات. وكل الطبقات الأولى اخفت أسمه الحقيقي، وأول طبعة أظهرت شخصيته هي التي تمت في مدينة بلنسية عام 1836.

ولكن الفوائد المادية التي جناها باديا من هذه الطبقات محدودة للغاية، حتى أنه لم يستطع أن يرفق مع تقريره إلى ريتشليو نسخة من رحلاته، وقد طبعت، لأنه لا يملك واحدة منها، وأول مرة رأى فيها الترجمة الإيطالية في البندقية عام 1818، وكان حتى هذا التاريخ يجهل وجودها.

هل نفترض أنه كان في موقف سيء اقتصادياً، كما صنع كل الذين ترجموا له، ولهذا أمطر الحكومة الفرنسية بالعديد من الخطط الجديدة؟. ذلك شيء لا يمكن تأكيده، لأن المترجمين الإسبان حين غادروا وطنهم إلى فرنسا مع جيش الاحتلال لم يخرجوا وأيديهم فارغة، أو جانب كبير منهم على الأقل، إلى جانب أنه احتفظ في باريس بعلاقات حميمة مع عديد من الشخصيات، وبخاصة المثقفين منهم، كما أن ترمّل ابنته حسن موقعه نسبياً.

وبعد أربعة أعوام من الإقامة في باريس بلا عمل، ومع أسرة عليه أن يتولى أمرها، طلب في عام 1817 معاشاً من الدوق ريتشليو فلم يتلق ردّاً، فجدّد الطلب متعجباً من أن خطته لاستعمار أفريقيا لم تدرس، ومتحدثاً عن الخدمات التي قدمها لفرنسا وأن رحلاته السابقة تمت لحسابها وليس لإسبانيا، وكتب له: «أسرتي تعيش في البؤس، على حين أن فرنسا وتجارتها يجنون يومياً الملايين، ثمرة عملي وخدماتي». ولم يجد هذا الطلب رداً مرضياً، لأن ريتشليو هاجر خلال الثورة والإمبراطورية، ولما عاد ثانية مع لويس الثامن عشر إلى باريس لم يشعر بأي ميل نحو الإسبان المترجمين، ممن خانوا ملكهم

اكتشف أن صهره لم يترك عملياً أية ثروة باستثناء المكتبة، فحاول أن يبيعها إلى بابيه أمين المكتبة الملكية، ولكن المفاوضات لم تصل إلى غايتها. في هذا العام انتشر كتاب باديا عبر أوروبا كلها، فقد ظهرت الترجمة الإنجليزية في جزأين تحمل عنوان: «رحلات علي بك في المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وسوريا وتركيا بين أعوام 1803 و 1807»، مع الخرائط والرسوم التي خطها المؤلف بنفسه، وفي الصفحة الأولى تحذير من الناشر بأن الرحلة حقيقية، ورسالتين تؤكدان هذا المعنى، أحدهما من صهر باديا ليسل دي سال، وفترة من رحلة شاتوبريان «الرحلة من باريس إلى القدس» يشير فيها إلى أنه التقى مع علي بك في الإسكندرية، ورغم أن هيلين ماريا وليامز راجعت الترجمة بناء على طلب الناشر، فقد تضمنت كثيراً من الأخطاء. وفي الوقت نفسه ظهرت الطبعة الألمانية في جزأين أيضاً، وصدرت في مدينة ويمر.

وجاءت الطبعة الإيطالية في أربعة أجزاء، وصدرت عامي 1816-1817، وكانت بعضاً من سلسلة كتب عن الرحلات، وتضمنت مقدمة عن حياة المؤلف، وصفته بأنه أمير من ممالك مصر، وأحد أربعة عشر «بيك» يكوّنون الأرستقراطية فيها، وتشير إلى أنه ولد في تفليس من ولاية جورجيا في روسيا، ثم أسرته جماعة من هج القوقاز، ولهذا جاب فارس وآسيا الصغرى، ثم دخل في خدمة سليمان بك حاكم مصر، وفي بيت هذا صنع ثروته واختير وهو في الثانية والعشرين من عمره عضواً في المجلس المصري الأعلى، وكان يتألف من 24 «بيك»، وبالطبع نحن بإزاء تاريخ خيالي ابتدعه كاتب المقدمة، وقد وجد نفسه مضطراً أن يقدم شيئاً عن حياة المؤلف، وكان يجهلها تماماً.

أما الطبعة الإسبانية فلم يقدر لها أن تنشر إلا بعد أن عم الكتاب كل أوروبا، فنشر في بلنسية في ثلاثة

المدفعية الإسباني، في الجيش الفرنسي، بنفس الرتبة وفي نفس السلاح، وأن يصرف لزوجته خلال الرحلة، أو إذا تزلزلت، ثلاثة آلاف فرنك سنوياً من ميزانية المستعمرات، وفي حالة موتها تدفع لابنه الأصغر خوسيه مادام حياً. ويصرف لباديا نفسه عشرة آلاف فرنك مرتباً سنوياً، ويدفع له المبلغ الخاص بالعام الأول مقدماً في اللحظة التي يبدأ فيها الرحلة، والخاص بالعامين الآخرين يدفع له في عكا في فلسطين بالعملة الذهبية التركية. ويصرف له أيضاً من ميزانية المستعمرات الآلات والأدوات التي يحتاج إليها في رحلته.

ويلاحظ أن ما أنفقته فرنسا عليه قليل جداً بالنسبة لما صرفته إسبانيا، وكذلك خلت الاعترافات الفرنسية من هدايا، أو رشاوى إذا شئت، للحكام في البلاد التي يمر بها، على حين أنه في الرحلة السابقة حمل هدايا ضخمة لسلطان المغرب وأموالاً أخرى كثيرة ورعها على المسؤولين، وأنفق جانباً محدوداً في شكل صدقات أعطاهما للفقراء والمساكين تظاهراً بالصالح والتقوى.

وما إن وافقت فرنسا على رحلته حتى عاد إلى أحلامه القديمة من جديد، وأن كارلوس الرابع ملك إسبانيا أجهض خططه، ولو استجاب له لكان حاكماً على أفريقيا منذ رحلته الأولى، أو على الأقل لعاش في أوروبا غارقاً في الثراء، وقد دفعته أحلامه إلى الكذب كثيراً، وتلاشى الخط الفاصل في ذهنه بين الآمال والواقع، وامتد هذا إلى نسبه، فأخذ يكتب لموليه عن فرنسا «موطن أسلافه، وراح يذكره بشجرة نسب كان قد اخترعها».

لكن من الحق أيضاً أن نذكر أن فرنسا لم تخدع بأحلامه، وكان اهتمامها بخططه محدود للغاية، ولعلها عادت إلى قنصلها في أفريقيا ليوافوها بما حققه في رحلاته السابقة. وربما كانت استجابتها مجرد مقامرة، مقابل نفقات زهيدة، إذ لم يكن من الفطنة في شيء

الشرعي ووطنهم، ولم يظهر أي ميل أو تأييد لتمويل خطط خيالية، ويمكن في الوقت نفسه أن تثير غيرة القوة الأوروبية العظمى ونهمها.

وفي خريف 1817 استجاب باديا لنصيحة جديدة، وبدأ يطرق أبواباً أخرى، ذهب إلى وزير البحرية الكونت موليه فاستقبله بحفاوة، وكذلك فعل الكونت ديكايز وزير الشرطة، وكانا من كبار عصر الإمبراطورية، ولا بد أنهما عرفاه، أو سمعا به على الأقل، وعرض على موليه خطة لاكتشاف أفريقيا تبدأ بالحج إلى مكة، وهناك ينضم إلى قافلة تعبر البحر الأحمر، وبعدها يتوجه إلى قلب إفريقيا، فيبلغ تمبكتو، ويخترق النيجر والسنغال متجهاً إلى الغرب حتى يبلغ سان لويس على شاطئ الإطالنتي. وقد أخضع موليه الخطة لدراسة يقوم بها معهد فرنسا، وكانت اللجنة الثلاثية التي درستها من أصدقاء باديا، فجاء ردهم يؤكد أهمية الرحلة، ويشير إلى صعوبة تنفيذها أيضاً، ولو أن باديا - فيما يرون - قادر على مواجهة هذه الصعوبات وكانت الخطة كما تضمنها الأمر الملكي الصادر بها على النحو التالي:

● أن يخترق وسط أفريقيا من الشرق إلى الغرب.
● وأن تستغرق ثلاث سنوات، الأولى في الحج إلى مكة، والأخريان في اختراق أفريقيا فيدخل من الحيشة، ويمر بدارفور، ويخترق النيجر، ويخرج من السنغال.

● أن يهب الدولة الفرنسية الأوراق والمجموعات والمذكرات والخرائط والرسوم التي قام بها في الرحلات السابقة، أو يقوم بها في هذه الرحلة، للمناطق المختلفة التي مر بها.

على أن تبدأ الرحلة في كانون الثاني (يناير) القادم وتنتهي في كانون الثاني (يناير) 1821.

وفيما يتصل بالطلبات التي تقدم بها باديا له ولأسرته، وفي ضوء الفوائد التي سوف تجنيها فرنسا من رحلته، تقرر تعيين ابنه، وكان ضابطاً في سلاح

تبعث على الاطمئنان فيما يتصل بهذه الرحلة الطويلة الشاقة».

وفي 26 نيسان (أبريل) عبر علي بك البوسفور، وفي 23 كان في حلب، وفيها الغى رحلة كانت مخططة من قبل لزيارة جبل لبنان، حتى لا يتأخر عن اللحاق بقافلة الحجاج، وكانت غايته من زيارته أن يدرس طبيعته الجيولوجية ونباتاته، وقبل ذلك أن يلقي ليدي سوسي هيوستنابوب، حفيدة الرحالة بيتس والتي رحلت إلى المشرق عام 1810، وسكنت قرية جوني، في جانب من لبنان وكان الوصول إليه عسيراً للغاية، وسمح لها العثمانيون بأن تحيط نفسها بحرس شخصي، وأن تمارس سلطتها على سكان الجبل، وكان ذلك مما يهم علي بك بطبيعة الحال، فهو يريد أن يتعرف على هذه المغامرة التي حققت جانباً صغيراً من طموحاته الكبرى، وأحلامه بأن يكون على رأس أراض إسلامية واسعة. وحاول قنصل فرنسا في حلب أن يحقق له هذه الغاية، فتبادلا الرسائل، ولكن لقاءه بها لم يتم.

كان قنصل فرنسا في حلب صديقاً لعللي بك، وسبق أن التقياً في قبرص عام 1806، ولذلك استضافه في بيته في حلب طوال إقامته بها، وبلغت واحداً وعشرين يوماً، وفي 30 حزيران (يونيه) خرج علي بك في طريقه إلى دمشق، وفي طرابلس قبض من القنصل المبلغ الذي كان مقرراً أن يتلقاه في عكا في عملة صغيرة، مما أضاع عليه عند الاستبدال مبالغ كبيرة، ولم ينتبه لهذا الأمر إلا فيما بعد.

وفي 4 تموز (يوليه) وصل إلى دمشق، ووجد مفاجأة سيئة في انتظاره، ذلك الطبيب الفرنسي شابوسو، وعرفه في الرحلة السابقة، كان غائباً عن المدينة، فاضطر أن ينزل في دار مع بقية الحجاج ويسمىها «الجهنمية»، وقد توقع أن يسأل الطبيب عنه، وأن يبحث له عن منزل مريح، فلما افتقده غضب عليه، ولكن القنصل رينيو تدخل في الأمر،

إرسال رجل تجاوز الخمسين من عمره، وصحته معتلة، لكي يخترق أفريقيا، والرحلات الشبان الذين سبقوه إليها كثيرون، وذهبت بأرواحهم. ولعلها رأت فيها تمهيداً لما كانت تهدف إليه سرّاً، وهو: اكتشاف طريق أرض الهند، والإعداد لاستعمار افريقيا، والبحث عن أسواق في القسطنطينية ومكة، وكان بادياً يحلم بتحقيق هذه المشروعات الثلاثة رغم ما بينها من تباعد يبلغ آلاف الأميال.

خرج باديا من باريس في أواخر شهر كانون أول (ديسمبر) 1817، وحمل اسم الحاج علي أبو عثمان، وتشير الكنية إلى أبوته لابنه عثمان، الذي ولد في المغرب بعد رحيله عنه، ويمكن متابعة خط سيره من رسائله التي كان يكتبها إلى موليه أو أسرته، فمن ميلان كتب إلى زوجته في 18 كانون الثاني (يناير) 1818 يؤكد لها أن الغرض من رحلته في هذه المرة أن يضمن مستقبلها. وفي 23 وصل البندقية، ومنها كتب إلى موليه عما أحدثته المدينة في أعماقه: «إن نظرة عجل كافية لكي يعرفها، فليس فيها علوم ولا أدب يسترعيان الاهتمام».

وما إن وصل علي بك أبو عثمان القسطنطينية في 19 آذار (مارس) حتى تقدم إلى سفير فرنسا فيها، المركز ريفير، وفي الحال تفاهما، وتوثقت بينهما العلاقة، ويقول عنه في رسالة له: «استقبلني بحفاوة، وهو شخص ذكي ومتفان في عمله، ولذا رأيت من المناسب أن أخبره بسري كي يتصرف وهو عارف».

ومن جانب آخر أعطى السفير انطباعه عن الرحالة في رسالة بعث بها إلى موليه: «رأيت الرحالة الحاج علي أبو عثمان يدخل مكنتي، وفيما بعد تعرفت عليه جيداً، واستمعت إليه باهتمام حقيقي، وأعجبت بأفكاره عن الحاضر والمستقبل، وشغلت به، وبإقامته، وبخطط رحيله، وكان يريد أن يذهب إلى حلب وطرابلس الشام، وأمددته بما هو مقرر له، وبذلت جهداً كبيراً فيما يتصل بأمنه، وذكاؤه ومعارفه

وبين له أن الطبيب كان غائباً عن دمشق لمرضه، فقد وقع من جواده فوق الصخور، وهو في التاسعة والسبعين من عمره، فلزم السرير، وبقي تحت رعاية الطبيب، ولذلك غاب عن دمشق أربعين يوماً.

وفي تلك الأيام ظهرت علائم المرض على علي بك، وفي 23 كتب إلى موليه: إن تعاور الجوع على بدنه، مع تقدم السن، أوهن صحته، وأصابه بالدوستاريا، مع مظاهر توميء بالخطر وأنه يعالج نفسه، وتلقى من مصرفي يعرفه في لندن بعض الأدوية، دون أن يحتاج إلى طبيب إذ ليس في دمشق كلها غير طبيب واحد، وهو ملازم الفراش لمرضه، ولم يعد يذهب إلى عيادته.

ولكن بعد ذلك بثلاثة أيام اضطر إلى أن يرسل إلى شابوسو يخبره بحالته، ولما رأى هذا خطورتها قرر أن يذهب إليه رغم أنه ملازم الفراش ومتقدم في السن، لكي يكشف عليه.

وكارثة أخرى كانت تنتظره أيضاً، فقد استولى أحد خدمه على كيس نقوده، وبه 3200 قرش، حين كان خارج البيت يؤدي صلاة الجمعة في مسجد المدينة، وقبض على الخادم أثناء هروبه في حماة، ولكن علي بك لم يتلق من المبلغ غير ألف قرش فقط، أما الباقي فدفعت شكراً للباشا، وللآخرين الذين قبضوا عليه. وبعد أن دفع نفقات القافلة التي سوف تحمله إلى مكة لم يبق معه غير ثلاثة عشر ألف قرش، فاحتاط لنفسه، وطلب من موليه أن يأمر قناصل فرنسا بأن يدفعوا له ألفي فرنك، إذا فاجأته سرقة أخرى حتى لا يبقى بدون نفقات.

وفي 17 من آب (أغسطس) خرجت القافلة من دمشق، وكان علي بك يتوقع أن يعيد إليه هواء الصحراء الجاف صحته، فكتب إلى أسرته: «المناخ الساخن يعيدني شاباً»، ولكن الطبيب شابوسو لم يكن يشاركه تفاؤله، فكتب إلى موليه: «يعزيني أن أراه

وقد استرد صحته على نحو يسمح له بأن يواصل رحلته، ولكني لا أستطيع أن أخفي على معاليكم المخاوف التي تنتابني فيما يتصل بالنتائج، فإني أجد الرجل منهكاً، سواء فيما يتصل بضعف مزاجه، أو بعمله الذي لا يتوقف، وبخاصة أنه يسهر جانباً طويلاً من الليل يرد على عدد لا يحصى من الرسائل، يصنع ذلك ليلاً لأن البيت الذي ينزله مشترك بينه وبين حجاج آخرين، فضلاً عن الحر البالغ الذي نعاينه، ومتاعب رحلة طويلة ومرهقة، وكل ذلك يجعلني مشغولاً عليه جداً إلى أن تعود القافلة».

وما إن بدأت القافلة سيرها حتى لزم باديا سريره لأن الدوستاريا هجمت عليه من جديد، ولكن الألم أخذ يزداد، وبعد يومين توقفت القافلة كعادتها في موزيرب إلى جانب الجولان، وهو مكان تجتمع فيه قوافل الحجاج الكبرى كي تتمون قبل أن تعبر الصحراء الكبرى، وفي هذا المكان التقى باديا أيضاً بالرحالة البولندي ريزيفوسكي، الذي أرسلته ملكة ألمانيا ليشتري لها خيولاً عربية أصيلة، وقد أخذ بمظهر هذه المحطة والقوافل، تتكون من أناس ينتمون إلى بلاد مختلفة، وظهر في خيمة باديا يرتدي ملابس عربية، وعني به خلال عدة أيام، دون أن يستطيع إقناعه بالعودة إلى دمشق كما تتطلب صحته.

وبعد عشرة أيام من الراحة أقلعت القافلة في 28 آب (أغسطس)، وعندما توقفت ليلاً كانت صحة باديا قد ساءت، ولم يبق أمامه إلا أن يفرغ ما في بطنه، وأخذ وحيداً يحرق أوراقه، وقاوم يومين والقافلة تواصل سيرها نحو الزرقاء على ضفاف النهر الذي يحمل الاسم نفسه متفرعاً من نهر الأردن، وفي هذا المكان الأخير أحس بقرب النهاية كأمر لا مفر منه، فبدأ ينظم أموره، ويتخذ قراره فيما يتصل بالأموال التي يحملها، وكلف خادمية ياسين وإبراهيم أن يسلموا كل حاجاته إلى قنصل فرنسا في دمشق، واختار الشيخ الجزار منفذاً لوصيته، وطلب منه أن

يقسم الأموال المعدنية التي معه إلى نصفين، بين عبد أسود كان يصحبه، وأن يوزع النصف الآخر على فقراء مكة والمدينة. وفي المرحلة التالية، بين الزرقاء وقلعة البلقاء كان على القافلة أن تسرع بأقصى إمكاناتها، وفي منتصف الليل وجد علي بك نفسه في حالة إغماء فخلع خاتمته وكان يتخذ للتوقيع، وأعطاه لخادميه، وأغلق هذان الخيمة عليه وعندما فتحتها في صباح اليوم التالي وجداه جثة هامدة.

كانت القافلة تضم مجموعة من المغاربة الذاهبين إلى الحج، وقد تابعه هؤلاء منذ اللحظة التي رآه فيها يخرج مريضاً من دمشق، رآه غنيمة محتملة، يمكن أن يستولوا على أملاكه إذا فاجأه الموت، وعندما علموا بذلك سطوا عليها، وأخذوا يسبونونه، واتهموه بأنه مسيحي متخف وساحر، ومع ذلك دفن على الطريقة الإسلامية، في قلعة البلقاء، في الجنوب الشرقي من الأردن الآن.

هل مات باديا مسموماً؟

لقد شك هو نفسه قبل أن يموت في هذا، إذ يقول في آخر رسالة كتبها إلى قنصل فرنسا في دمشق في 23 آب (أغسطس): «قبل خروجي من دمشق بثلاثة أيام زارني الطبيب شابوسو، وأحضر لي معه عدة قراطيس من «رونند» محمص، أخذت واحدة فسببت لي الماء مزعجاً، ومعاملة له واصلت حتى الرابعة، وهذه كانت كافية لكي أضع الموت في فمي بأصبعي، ففكرتها، ووجدت نفسي في حالة إنهاك مطلق».

«وبدون شك كان هذا العلاج يحوي سماً دون أن يعرف شابوسو الغلبان أو يشك، وجاءت الضربة - فيما يرى - من راهب إسباني فظ كان صديقاً حميماً لزوجتي شابوسو ومن هذه الشيطانة أيضاً، وهما يعتقدان أنها بهذا صنعا فضلاً عظيماً. ومع الرسالة أرسل لكم بقية هذه القراطيس، إذا عشت احتفظ بها حيث هي عندك، وإذا مت أرسلها مع خطابي إلى مسيو موليه».

وثمة رواية أخرى عن موته ترويها الليدي ستانوب، وظلت تتبادل الرسائل معه حتى موته، وأبدت رأيها حوله في حوار مع الكونت مرسيللو سكرتير السفارة الفرنسية في القسطنطينية، سألها:

- ألا أستطيع مساعدة الرحالة التعس علي بك؟

وعندما سمعت ستانوب بالإسم تأثرت وردت:

- لقد أثرت كل مواجعي، مسكين علي بك!، كم أنا حزينة له، ولكن بالصرحة (أضافت بعد لحظة صمت) هل لديك أوامر بأن تتحدث إلي عنه؟

- أبداً، أكرر يا سيدي أن زيارتي لك لا غاية وراءها أبداً، ولا تمثل جانباً من واجباتي، وأسئلتني حول علي بك تحيء مني بوصفي رجلاً يهتم بقوة بتأجيل رحلته الأخيرة.

- حسناً يا سيدي، أعتقد أن الله أرسلك إليّ لأتححر من ألم حقيقي، وأثق فيك ثقة مطلقة. عندي رسالة كتبها علي بك قبل أن يموت، وقرطاس من «الروند» المحمص مسموم، وأعتقد أنه سبب موته، وأود أن أرسل الأمرين، الرسالة والقرطاس، إلى وزير بحرية فرنسا، وحتى الساعة لا أثق في أحد، عدني بأنك تحملهما معك عندما تعود إلى باريس، وتنفذ إرادة الرحالة الأخيرة.

«في البدء فكرت أن موته كان انتقاماً من المسلمين، لأن في رحلته الأولى التي نشرت في باريس أزعج النقيب عن أسرار مكة، ووصف بدقة قبر محمد، واستطاع أن يحقق هذا متخفياً وراء زيه الشرقي، فأرادوا عقابه على فضوله هذا، ولكني عرفت أخيراً أن لا شيء من هذا، وهو نفسه ينسب موته إلى أسباب أخرى».

وطبقاً لها، فإن علي بك، كان ضحية سم الأوروبيين وحسدهم، ويفهم منها أن الإنجليز هم الذين قاموا بهذا.

ويعطي الكولونيل مرنييه رواية أخرى شبيهة، ويتهم الإنجليز في المقام الأول، وطبقاً له فإن لويس

الثامن عشر حذر علي بك: «شك في بعض الأجانب، والانجليز منهم بخاصة... لفهمي... الإنجليز بخاصة».

وثمة رواية ثالثة أوردها الذي كتب مقدمة الطبعة الإسبانية، ولو أنه أخطأ في تاريخ الوفاة وجعله 1822، فهو يصرح بأن «الحكومة الفرنسية أعطت باديا مكافأة مهمة عن رحلته إلى الهند، ومنحته درجة مرشال في الجيش ومرتبة، وخرج من باريس تحت اسم علي عثمان وتوجه إلى دمشق، ويؤكد الفرنسيون أن باشا دمشق قبض مبلغاً من أمة كبرى كي يراقب علي بك في دراسته لطريق الهند، فدعاه إلى تناول الطعام، وكان فنجان القهوة الذي شربه آخر ما تناول في حياته، وظلت أوراقه وحاجياته في حيازة الباشا» ويعتقد المؤرخ الإسباني غرسيه هريروس أن كاتب المقدمة أخذ هذه المعلومات من زوجة باديا.

وفيا يتصل بقرطاس «الروند» المحمص، والذي اعتقد باديا أنه مسموم، فحصه صيدليان في باريس، وجاء تقريرهما سلبياً وأخطرا بذلك وزارتي البحرية والمستعمرات.

لقد عرف علي بك كيف يحيط موته، كما أحاط حياته من قبل، بطائفة من الأساطير، وقصة دس السم له يجب أن ينظر إليها في ضوء مؤامراته للاستيلاء على عرش المغرب.

حاول القنصل الفرنسي أن يحس النبض لاستعادة أوراق باديا وحاجياته وأمواله، تبعاً لأوامر وزير البحرية الجديد البارون بورتال، وعرف الرحالة عندما كان مديراً عاماً للمستعمرات، وأما الغنائم التي حازها الحجاج المغاربة فقد أودعت تحت تصرف الأغا، أي رئيسهم، وقد اغتيل هذا في الطريق - تبعاً لرواية قنصل فرنسا - فاضطلع بأمرها باشا دمشق، إذ ليس للمسيحيين الحق في أن يطالبوا بميراث رجل مسلم، وكان من الضروري أن تتدخل الحكومة الفرنسية لدى الباب العالي، ولكن ذلك يعني إظهار

شخصيته المزيفة، وبداهة لم تفعله. وباع الباشا جانباً من مخلفات علي بك، وحصلت الليدي ستانوب على جانب منها بسعر مرتفع، وحصل أحد الأباء الرهبان على ساعة توقيت بسعر رخيص للغاية لأن الباشا كان يجهل قيمتها.

لم يعرف موت علي بك إلا بعد مرور شهور طويلة من حدوثه، عرفه القنصل الفرنسي في دمشق في تشرين ثاني (نوفمبر)، وأعلم شابوسو السفير الفرنسي في القسطنطينية في 14 كانون أول (ديسمبر) ولكن السكرتير العام لوزارة البحرية لم يعلم أسرته بالخبر إلا في 17 آذار (مارس) 1819.

وكان هناك من يظن أن باديا لم يميت، وإنما هي حيلة منه كي يواصل خططه الخيالية وكانت عائلته تميل إلى هذا الرأي، وقد رفض وزير البحرية أن يسمح لأسرته بأن تقيم على روحه قداساً «لأن التقارير التي لدى الوزارة ليست كافية للموافقة».

نحن أمام رحلة ذات طابع خاص: رجل أوروبي يتخفي وراء شخصية أمير عربي مسلم، يرتدي زياً شرقياً، يقيم الشعائر الإسلامية، ويكتب باللغة الفرنسية، ويتوجه إلى قارء مسيحي، وكل ذلك يفرض عليه واقعاً معيناً: أن يسبح في بحار عديدة، وأن يواجه تناقضات عميقة. وقد حافظ خلال رحلته على أن يظهر في ثوب مسلم تقي، ووصف عقيدة المسلمين وكثيراً من طقوسهم، وقدم للجمهور الأوروبي لوحة مفصلة عن حياتهم الاجتماعية والدينية، وأخذ يؤكد، ربما بشيء لا يستطيع التصريح به، على أن الإسلام لا يعرف النظام الكنسي ولا الرهينة، ولا الطبقة الوسيطة بين العبد وخالقه، والناس جميعاً سواسية أمام الله، فليست هناك طبقة متميزة، وأحياناً يترك الحماسة تغزوه، انطلاقاً مع الدور الذي يمثله، فتفيض مشاعره، وتتجاوز حدود ما هو تقليدي، كتب عن الحج يقول:

«على جبل عرفات فحسب يمكن أن تتصور فكرة

المشهد العظيم الذي يقدمه الحج للمسلمين: جماهير غفيرة من كل الشعوب والأمم والألوان، جاءوا من أقصى أنحاء المعمورة عبر آلاف المخاطر، ومتاعب ومعاناة لا حد لها، لكي يعبدوا الله الواحد معاً: سكان القوقاز يمدون يد الصداقة إلى الحبشي أو الزنجي من غينيا، والهندي والفارسي يتآخيان مع البربري والمغربي، يتلاقون جميعاً أخوة، أو أفراداً من العائلة نفسها، توحد بينهم رابطة الدين، وتحدث أغليتهم، أو على الأقل يتفاهمون، كثيراً باللغة نفسها، وهي اللغة العربية المقدسة، وليست هناك عبادة مثل الحج تقدم للحواس مشهداً أكثر روعة، وأقوى تأثيراً، وأسمى جلالاً.

ولكنه في فقرات أخرى ينسب دوره فقيهاً عالمياً، ويعود أوروبياً متحرراً، فهو يحمل بقسوة على الأولياء في المغرب، وامتيازاتهم الدينية، وأنهم يتلقون المكانة وراثته، وتمتعهم إلى أقصى حد بملذات الدنيا حتى أن سيدي العربي يملك ثماني عشرة جارية سوداء، ويورد حواراً جرى بينه وبين فقيه وقور في طنجة، يرى فيه هذا مقتنعاً أن بسطاء الفكر في هذا العالم جاءوا لخدمة الأذكياء، ويصف التعليم في أحد كتاتيب مدينة فاس، وقسوة الفقيه، وصراخ الأطفال يستغيثون رهبة ويطلبون الرحمة، ويرد الصحة القوية وتدفق الدم في وجوه اليونانيين في موربا، إلى كمية النبيذ الكبيرة التي يشربونها. وأشار إلى مستوى اليهود المنحط في حيهم «الملاح» في الرباط، وأن أي واحد منهم، مهما كان غنياً، لا يستطيع أن يمر على مسلم وهو على ظهر دابته.

وعلي بك في رويته للأحداث أقرب إلى رحلات المغرب في عصر الوسيط منه إلى الرحلات الأوروبية المحدثين، فهو يلتقي مع ابن بطوطة، كما لاحظ بحق كل من سيرافين فانخول وفيدريكو أربوس في مقدمتهما لترجمة رحلة ابن بطوطة إلى الإسبانية وتمت من أعوام قليلة، فكل منهما شحيح للغاية في

المعلومات التي يقدمها عن شخصه وحياته الخاصة، ربما لأنها يهدفان أن يقدموا إلى القارئ «العادات الطارئة، والأحداث الرائعة، والوقائع الهامة، التي تعلي قدره كاتباً، وكلاهما - ابن بطوطة وعلي بك - يقف طويلاً عند القضايا التي يجلبها قارئه، فتجذبه غرابتها، تاركاً الحديث عن شخصه ومشاعره جانباً، وهي خاصية تفرض على القارئ أن يكون إيجابياً إزاء ما يقرأ، يقطاً وله موقف، لكي يكون رأيه الذاتي والأخلاقي.

ومثل ابن بطوطة، وبعض الرحّلات الآخرين، لا يمل علي بك من الحديث عن مقابلاته مع الملوك والباشوات والأشراف وكبار العلماء الذين التقى بهم وأهميتهم، والاحترامات التي قبول بها، والهدايا التي قدمت إليه، والابتهاج الذي صحبه قادماً أو راحلاً، ويفسح المجال لتفصيلات مملّة، ومبالغ فيها أحياناً. فهداياه لعلية القوم، وحواره مع القواد والأشراف المغاربة، جعله موضع الرعاية من الجميع، وأعطاه تميزاً واضحاً على كل الأجانب، فله حق الجلوس إلى جوار السلطان في جلساته الخاصة، وأن يستعمل المظلة، وهي رمز السيادة، في الحفلات، وفي فاس لفت البُرْس الذي أهداه إليه مولاي سليمان أنظار الناس، فهم يتجهون إليه احتراماً ويقبلونه في كتفيه، وأصبح اسمه وملابسه يجري على كل فم، وذاعت شهرته علماً، وتدخله في قضايا البلاط جعل المعجبين به يقبلون يده، ويأخذونه بالأحضان، ويعلنون أنه أعلم الرجال، وهي مظاهر لم تفارقه - فيما يقول - حتى في ساعات الخطر، عندما حملته المركب إلى طرابلس الغرب، وأوشكت أن يبتلعها اليم، فقد لجأ إليه القبطان والبحارة والركاب عندما علموا أنه قادر على إنقاذهم بدعوته وعلمه.

ولحظ أن الناس يحترمون طائر اللقلق والسلحفاة، وقالت له عجوز مراكشية تحترف السحر إن اللقلق كائن إنساني من جزر بعيدة، ولكي يستطيع الرحلة

تعيش بلا باشا ولا فائدة، ولا تدفع أية ضرائب، وتجاهل السلطان واقعاً، ويحكمها المرابطون، وتتمتع بنوع من الحكم الذاتي، ويدرك الفرق بين بلاد المخزن وهي التي تخضع للإدارة المركزية والسلطان، والبلاد السائبة، بمقاطعاتها المختلفة، وتبع الزوايا ورؤساء المرابطين. والدولة فوضى بسبب نمو الطوائف، والصراع بينها، والحرية المطلقة للأغنياء والمغامرين، تقابلها بطالة الضعفاء وبؤسهم، وأدى عدم تنظيم وراثته العرش إلى صراع دموي بين الأخوة والأقرباء، فكل أمير طامع فيه، ويسلح أتباعه للدفاع عن حقه، وموت سلطان مغربي وتولية أمير جديد، تستلزم عادة موت مئة ألف مغربي.

عندما اتجه باديا إلى الشرق تحرر من الاهتمام الأكبر بالسياسة ومؤامرات القصور والمهمة التي كلفه بها جودوي في المغرب، وألقى بكل ثقله إلى جانب الملاحظات العلمية والأنثروبولوجية والاجتماعية، مقدماً للمقارن سلسلة من الأحداث التاريخية، والعادات والتقاليد في الشعوب التي زارها، يوضحها برسوم من قلمه، ذات أهمية كبيرة فقد نسخ للمرة الأولى، وفي دقة متناهية، الآثار الإسلامية في مكة وأنحاء أخرى من العالم العربي.

في طرابلس الغرب شهد الصراع الدموي الذي انفجر بين العمال التي تخضع للسيادة العثمانية نظرياً، واستنتج منها أن هذا الموقف لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، وأن الفوضى السائدة والحروب الأهلية سوف تؤدي بالقوة العثمانية.

وفي القاهرة أقام ثلاثة أسابيع نزل خلالها في بيت الشيخ المثلوثي شيخ رواق المغاربة وإمام الجامع الأزهر، ووجد في مصر جالية مغربية كبيرة، على رأسها مولاي سلامة شقيق السلطان، وكان لاجئاً في مصر، وتعرف إلى كبار علماء الأزهر وشيوخه والزعماء الشعبيين: السيد عمر مكرم شيخ شيوخ القاهرة ونقيب الأشراف، «وغالباً ما كان يلعب دور أمير

ويزور أمكنة أخرى اتخذ شكل هذا الطائر المهاجر، ولكنه يعود في كل عام إلى بلده، وهناك يسترد حالته الأصلية. ووصف حفلات الإعذار والمولد النبوي والجنائز والحفلات، ولا تختلف الآن كثيراً عما كانت عليه في القرن الماضي، أما حفلات الزواج فقد تطورت بعض الشيء.

ونظرة باديا إلى المجتمع المغربي في تلك الأيام جديرة بالتأمل، وأول ما استرعى انتباهه الفقر والبطالة، رغم ثروات البلد الطبيعية الهائلة، فهم لا يعرفون، أو لا يريدون استغلالها، يلبسون أسماً بالية، وينامون على الأرض، وتراهم في الشارع في أي ساعة من النهار يسرون بلا غاية، أو يجلسون جماعات في الأمكنة، يتبادلون أحاديث تافهة ولا يتعبون منها، رجالاً ونساء، أغنياء وفقراء، ويعيشون في جهالة قائمة، وبخاصة فيما يتصل بالسماء والكواكب، وجهلهم الكامل بعلوم الطبيعة والفلك جعلته يلمع بينهم عالماً على تواضع معارفهم، وقد أذهلتهم العدد التي يحملها، لأنهم كانوا يرونها للمرة الأولى.

وهو يخلط بين الملاحظات العلمية والتقارير السياسية، ربما استجابة لمهته التجسسية التي عهد بها إليه جودوي، فيذكر أن المغاربة يجهلون الخدمة العسكرية، وتعوزهم الأسلحة والمعدات الحديثة، وعادة يترك مراكز دفاعه وبطارياته بلا حراسة، ومدينة السامرة لا يمكن أن تقاوم أي حصار لأن الماء ينقصها، والقوات النظامية وغير النظامية تتميز بإهمالها وعدم تدريبها، ويتولى الجنود حراسة المواقع جالسين وأحياناً من غير سلاح، والبلد تحتضر، والناس كثيري الشكوى، وهو طابع المرء الذي يعرف أنه يجب أن يكون حراً ولكنه مع ذلك يخضع لأشد ألوان الطغيان همجية.

ووصف مدينة مراكش، أطلالها ومقابرها الفسيحة وقنوات المياه المهجورة، وأن كثيراً من العمال

مستقل بذاته»، والشيخ الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر ورئيس العلماء، والشيخ الأمير مدير وأمين صندوق الأزهر، والرئيس الثاني للعلماء، والشيخ الساداتي شيخ الطريقة الوفاية، والشيخ البكري شيخ الطريقة البكرية، والمهدي، وسليمان الفيومي، والدواخلي، والسيد عبد الرحمن الجبرتي الفلكي الأول في مصر، والعروسي والصاوي، وهذان يتمتعان باحترام كبير، تكريماً لما كان يتمتع به أبواهما من قبل، والسيد المحروقي شيخ التجار وصاحب النفوذ الكبير، ونائبه محمد حسن.

وقد وصف لنا العناصر التي رآها في القاهرة، الأرناؤوط والماليك والألبان، والفوضى السياسية الضاربة أطنابها، فلم يكن محمد علي قد تولى الحكم بعد، والكل يسرقون الشعب، والخليفة لا يملك وسيلة لإخضاع مصر لحكمه، فاكتمى بالضرائب التي يرسلها إليه الباشا، وشهد هجوم الإنجليز على رشيد والإسكندرية وهزيمتهم، «وامتلات القاهرة بالأسرى الإنجليز وكانوا تعساء للغاية»، على حد تعبيره.

وفي وصفه للقاهرة حاول أن يصحح الأخطاء التي وقع فيها كثير من الرحّالات الأوروبيين حين يصفون «شوارع القاهرة بأنها في منتهى القذارة وكآبة المنظر، لكنني أستطيع أن أؤكد أنه توجد مدن قليلة في أوروبا ذات شوارع نظيفة جداً كالقاهرة، فالشوارع مهيأة، أشبه بطريق عبد بعد رشه بالماء، كطرق أوروبا الواسعة، وإذا كان ثمة شوارع ضيقة فهناك أخرى واسعة، ولو أنها كلها تبدو أضيق مما هي عليه في الحقيقة». و«إذا نحينا القول بأن شوارع القاهرة ذات مظهر حزين، فإن العدد الهائل من الحوانيت والمصانع وجوع الدماء المارة، يعطي على الدوام مناظر متغيرة في كل لحظة، الشيء الذي وجدته بهجاً ممتعاً، كما هو الحال في مدن أوروبا الكبرى، أما الربض الذي يسكنه الإفرنج أو الأوروبيون، والمنزوي بعيداً عن المركز التجاري الرئيسي في المدينة، فهو مصدر ما

ذكره الرحّالات الأوروبيون في أغلب الظن». كما وصف مناخ القاهرة، ومعالمها البارزة، ومسجدي الحسين والسيدة زينب وجامع السلطان حسن، وكسوة الكعبة، ومستشفى قلاوون والقلعة والأهرام وأبا الهول والجيزة والروضة والمقياس ومصر القديمة والأديرة، وبولاق، وأطنب في وصف الجامع الأزهر، وحوله يعيش كبار شيوخ القاهرة، فهو مقصد المغاربة الذين يؤمنون للصلاة، ويفضلونه على غيره من المساجد، وفيه يجتمع القاضي ومشاوروه، ويلقي كبار العلماء دروسهم، منقسمين إلى حلقات، كل واحدة تتجمع في محيط صغير، وتشغل الحلقات كلها امتداد المسجد الواسع.

وربما كانت الصفحات التي خص بها الحج والجزيرة العربية هي أكثر صفحات الكتاب إثارة، وهو أول رحّالة أوروبي زار الأماكن الإسلامية المقدسة بنفسه، في ثوب مسلم تقي، لأن دخولها محظور على غير المسلمين، وجاءت زيارته شاهد صدق على شجاعته وعزمته ورغبته في أن يذهب مع المعرفة إلى آخر مدى لها. وعلى النقيض من رحلته إلى المغرب، لم تكن رحلته إلى مكة ذات أغراض سياسية خفية أو أهواء تبشيرية، وإنما تدخل فيما نسميه اليوم «أنثروبولوجي»، ودون أن نتوقف عند وصفه للطقوس، والاحتفالات الإسلامية، والتي أكملها وصححها فيما بعد الرحالة السويسري بوخارت، والإنجليزي بورتون، سوف نكتفي بما أورده عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مكة، والإصلاح الديني الذي جاء به الوهابيون.

لاحظ علي بك أن مكة تقع وسط الصحراء، بعيداً عن الطرق الصحراوية، فأرغمها ذلك منذ أزمان سحيقة على أن تفرض نفسها بقوة العقيدة الدينية، وأن تستغل الفوائد المادية التي تأتي من وراء هذه، كما يحدث لروما في إيطاليا، أو شنت ياقب في إسبانيا في العصور الوسطى. وأهلها يعيشون من

التقوى والصدقات التي تأتيهم من بعيد، والأموال التي يحصل عليها المطوفون، وأصحاب الفنادق والخانات، خلال أشهر الحج، مما يسمح لهم بأن يعيشوا منها بقية العام عليها، وبدون هذه الزعامة الدينية تصبح مكة في زمن قليل خراب وأنقاضاً ودوراً مهجورة، أما معه فتنشع التجارة، ويؤجر السكان خدماتهم للحجاج، وهذا هو صدقاتهم تكفي من يقومون على خدمة المساجد والأمكنة المقدسة.

التشدد الإسلامي لمحمد بن عبد الوهاب وأتباعه قضى على الزنادقة والسحرة والمهرجانات الدينية، وكانت تسهم مادياً في رفاهية سكان مكة والمدينة، والوهابيون لا يرفضون استخدام المسبحة والتدخين وزيارة الأولياء فحسب، وإنما هدموا المقابر والأضرحة والمساجد التي أقيمت تشريفاً لهم ويمنعون أيضاً تقديس شخص النبي، وحتى منعوا الحج إلى قبره، وأتيحت الفرصة لعلي بك ليرى ذلك بنفسه، ويعترف بأن المكان الذي فيه قافلته أغارت عليه شرذمة من الرجال، حليقي الرؤوس، شبه عراة، مسلحين حتى أسنانهم، فامتلاً رعباً، ولكن ما إن تعرف عليهم حتى اكتشف فيهم مجموعة من الفضائل والصفات الطيبة كالنبل وإنكار الذات، أعظم مما وجد عند بقية العرب، وهم أوفياء لرؤسائهم، يتحملون كل ألوان المعاناة، ويتابعون قادتهم ولو لنهاية العالم، لا يتراجعون أمام أي خطر أو صعوبة.

ولكنه يرى بعد أن تأمل مواقفهم وعقيدتهم جيداً، أن مثلهم الأعلى الديني والاجتماعي سوف يجد معارضة قوية تحول دون انتشاره في المناطق الأكثر غنى وتقدماً، لتشدده وصرامته، واصطدامه مع العادات التي درجتها عليها الشعوب الإسلامية الأخرى، ويقول بالنص: «إذا لم يخفف الوهابيون قليلاً من شدتهم في المبادئ التي يؤمنون بها، فيبدوا أن من المستحيل أن تنتشر الوهابية في بلاد أخرى أبعد من

هذه الصحراء».

وتكتسي نظرتهم لفلسطين أهمية بالغة، لأنها تناقض وتكذب سلسلة الأساطير والخرافات التي شاعت، واكتنظت بها الصحف والكتب، وملاً بها مؤسسو الصهيونية العالم بأجمعه، عن أسطورة الصحراء التي أحالوها جنة، بالمستعمرات التي أقاموها، والمزارع التي أنشأوها، والاضطهاد الذي تلاقيه الأقلية اليهودية والمسيحية من الفلسطينيين، وشهادته وهي محايدة وموضوعية تكذب كل هذه الدعاوى. يقول:

كل المنطقة التي رأيتها في فلسطين، من جنين إلى يافا، رائعة الخضرة، ومكونة من قرى مستديرة وملتوية، وأرض خصبة تكاد تشبه دلتا وادي النيل في مصر، وهي غنية بالمزارع وجميلة جداً.

«وفي فلسطين يسود أكمل انسجام عرفته بين كل الأديان، وتبدو تقاليد السكان العربية أكثر تقدماً بالنسبة لخيراتهم، فالنساء المسلمات يمشين مكشوفات الوجه، والاحتفالات والمهرجانات الإسلامية مفتوحة للرجال والنساء، وأصحاب العقائد الأخرى أحرار في الاشتراك فيها، والمسلمون في الناصرة يذهبون في مهرجان كي يقدموا أطفالهم لمريم العذراء، ويخلقون شعرهم للمرة الأولى في كنيسها، والأوروبيون في عكا يتمتعون بحرية كاملة، ويجدون التقدير من المسلمين. وكبير وزراء الباشا يهودي لأنه يتمتع بمواهب كثيرة». وفي القدس يعيش أتباع المسيح مختلطين بالمسلمين، دون أن تستطيع التمييز بين الاثنين، وأنتج هذا الاختلاط حرية أكثر اتساعاً مما هي عليه في أي بلد إسلامي آخر».

وقد أمضى علي بك رحلته غفلاً، غير مهتم بما هو تحت البطن كما يقول المثل الفرنسي، على النقيض من ابن بطوطة، والذي كان يتسرى في كل بلد يهبطه، فإذا لم يتيسر له ذلك تزوج، ويحكى لنا في ظرف وخفة دم، أنه نزل إحدى المدن ليلاً، ثم استيقظ مبكراً وصلى الفجر، ومع النهار زار القاضي والإمام

السوداوات والسود مع المغريبات، ولاحظ أن حرية المرأة من القسطنطينية تسهل لها الفجور كثيراً، وانتقد بشدة ما رآه في المشاهد العامة من هذه المظاهر. لا يكفي أن نلقي على رحلة باديا دومينجو نظرة خاطفة، أو نعرف بها تعريفاً عاماً، إنها في حاجة إلى ترجمة كاملة، والكثير منها يساعدنا على فهم حاضرتنا، وتفسير شيء من اتجاهاته، ويفتح أعيننا جيداً على المخاطر التي تحيط بنا، وأنها ليست قديمة، ولن تتوقف أيضاً!.

وحاكم المدينة، وبعضاً من أعيانها، وتناول الغداء، ويكمل في نبرة متعجبة أنه صلى العصر ولم يتأهل بعد! وعلى النقيض أيضاً من الرّحلات الأوروبيين المحدثين الآخرين أمثال بورتون وفلووير وغيرهما، ممن يعتبرون رواد الإنتربولوجي الجنسي الحديث، ولهذا ارتعب علي بك من بعض العادات المتحررة في البلاد الإسلامية، فارتاع من طريقة الاختلاط بين الجنسين في فلسطين، وكره بعنف الدور الذي يقوم به السود في المغرب حين يمارسون الحب، المغاربة مع

● المراجع :

- Ali Bey: Viajes par Marruecos, edición preparada par Salvador Barberá, Editora Nacional, Madrid 1985.
Augusto Casas: Ali Bey, Viajes y Aventuras de Don Domingo Badia, Barcelona 1943.
Domingo Badia, Viajes par Africa y Asia, prologo Guillermo Dialplaja, Barcelona 1943.
Garcia de Herreros E., Quatre Voyageurs espagnols à Alexandrie d'Egypte, Alexandrie 1923.
Kiernan R. H., L'Exploration de L'Arabie, Bayot, Paris 1938.